

بقلم

ليوتولستوى

لطفى سلطان

مؤلف الرواية

مؤلف هذه الرواية هو « ليو تولستوى » (١٨٢٨ – ١٩١٠)

رجل فذ فى تاريخ الاداب العالمية ، مقامه فى عالم القصة كمقام « ميكل انجل » فى عالم الرسم أو عالم النحت .. فحل من الفحول فى انتاجه الكبير الرائع ، ولكنه ليس روائيا فحسب ، بل هو ايضا صاحب رسالة ، وصاحب قلب كبير ، وحس دقيق عميق

اعتنق مبادىء السلام والرحمة ، وهاله أن تصبح رسـالات الانبياء التى قصد بها أن تؤلف بين القلوب ، من اقوى اسباب تنافر الناس وتآلبهم بعضهم على بعض بأشد العداوة والبغضاء

وهاله ان الاوطان التى بها يفخر الانسان ، واليهـا يحن ، قد جعلت من أمنا الارض التى تجمعنا على ثديها أحياء ، وفى جوفها أمواتا ، مثارا للتنازع والتطاحن ، من اجل منفعـة زائلة ، وجاه مغصوب ، يقوم على الغبن والعدوان ...

وهكذا انقلب تولستوى سـليل بيت الامارة والنبل والثراء العريض والضياع المترامية الاطراف ، مبشرا بالعدالة والمساواة ، وبأن الارض ليست ملك أحد ، وانما هى حل لمن يحلب شطريها بساعده ، وبأن المحبة والسلام يجب أن يسودا الناس ، بحيث يتحرر الشعب من رق الاستبداد والاستغلال على السواء

وجرد الرجل نفسه لرسـالته ، وجعلها هدفا لرواياته الطوال والقصـار ... بعد أن طبقها على حياته الخاصة . وكتب مؤلفات فى الاجتماع والنقد الفنى ، هى للاسف اقل من رواياته فى كل شىء ،

شخصيات الرواية

كاتيا الكسندروفنا :	احــدى فتيات الاسر المحافظة فى روسيا
سيرج ميخايلوفتش :	صديق والد كاتيا وكان يتردد عليها بحكم الجوار
سونيا الكسندروفنا :	شقيقة كاتيا
ماشـا :	مربيـة قامت بتربيـة اطفال الاسرة
تاتيانا سيمنوفنا :	والـدة سـيرج ميخايلوفتش
السيدة « ن » :	من سـيدات المجتمع الراقى فى بطرسبرج
الكونتيسة « ر » :	
الامير العجوز « ك » :	سفير فرنسى كان يقيم فى بطرسبرج
الماركيز « د » :	شاب ايطالى لعب دورا فى حياة كاتيا
بن	بستانى ابله

الفصل الأول

زهرة تتفتح

زيارة مفاجئة

كنا فى حداد على وفاة والدتنا التى ماتت فى الخريف الماضى .. وقد قضينا الشتاء كله فى الريف انا و «ماشا و « سونيا » (١) ..

وكانت « ماشـــا » صديقة قديمة للاسرة ، اذ كانت مربيتنا وتولت تربيتنا جميعا .. ولســـت أبالغ اذا قلت ان ذكـــرياتى وشعورى نحوها بالمودة قديمان قدم شعورى بوجودى على قيـــد الحياة ..

وكانت « سونيا » شقيقتى الصغرى ..

ومر بنا الشتاء حزينا معتما فى بيتنا القديم ببوكروفســكى .. وكان الجو شديد البرودة والعواصف حتى ان الجليد جاوز ارتفاع النوافذ ، بحيث ظلت مغطاة بصورة تكاد تكون مســـتمرة بالثلوج ، وبحيث لم نستطع من ناحية أخرى ان نخرج او نتنزه فى اى مكان طيلة الشتاء ..

وكان من النادر ان ياتى لزيارتنا أحد .. وحتى هؤلاء الذين كانوا يأتون لزيارتنا كانوا لايشيعون الفرح او البهجة فى بيتنا ، فقد كانوا يبدون جميعا بوجه حزين ، وكانوا يتكلمون بصوت خفيض كانهم يخشون أن يوقظوا احدا ، وكانوا يحذرون الضـحك ويكثرون من التنهدات .. وغالبا ما كانوا يبكون وهم ينظرون الى ، وخاصة حين يرون شقيقتى المسكينة سونيا مرتدية ثوبها الصـــغير الاسود .. كل شىء فى البيت كان لا يزال ينم عن الموت على نحو ما ، وكان رعب الموت وعوله يسودان جو المكان . وقد ظلت غرفة والدتى مغلقة ، وكنت ــ كلما مررت على مقربة منها وانا فى طريقى لانام ــ

(١) « ماشا » و « سونيا » كانت أسماء تدليل عائلية لمارى وصوفى

احس بألم شـــديد مع اغراء لا يقاوم ، كان يدفعنى دائما الى القاء نظرة سريعة على هذه الغرفة المهجورة الباردة

وكنت وقتئذ فى السابعة عشرة ، وكانت والدتى تنوى فى نفس العام الذى ماتت فيه أن ترحل لتقيم بالمدينة لتوبيتى هناك .. فكان فقدها بالنسبة لىخسارةكبيرة .. ولكن يجب على أناعترف باننى كنت اشعر فضلا عن الحزن بفراقها ــ وانا الشابة الجميلة كما كنت اسمعهم جميعا يقولون ــ بألم خاص لاضطرارى لتمضية شتاء آخر بالريف فى هذه الوحدة المجدبة . وقبل أن تحل نهاية هذا الشتاء ، كان شعورى بالاسى والعزلة قد ازداد فى نفسى الى حد اننى لم اعد أترك غرفتى أو افتح « البيانو » او اتناول فى يدى كتابا على الاطلاق

***

وحينما كانت ماشا تدعونى الى الاهتمام بشىء أو بآخر ، فاننى كنت ارد عليها قائلة : « لا اريد .. لا استطيع » فى الوقت الذى كان فيه صوت يتردد فى اعماق نفسى ليسالنى قائلا « ما فائدة ذلك ؟ لماذا افعل هذا الشىء بينما يذهب احسن أيام حياتى هباء . لماذا ؟ ولم يكن عندى من جواب على هذا السؤال دائما غيرالدموع !

وكان يقال لى اننى ازداد هزالا وقبحا طيلة كل هذا الوقت ، ولكننى لم اكن اعبأ بذلك .. فلماذا ، ومن أجل من ، كان يمكننى أن اجد نفعا فى مقاومة هذا الهزال ؟ .. وكان يبدو لى أن حياتى بأسرها لابد أن تنقضى فى هذه الصحراء .. فى قلب هذه الحسرة وهذا الضيق اللذين لا علاج لهما ، حيث استسلمت لمشـــاعرى الخاصة الى حد اننى لا أحس بالقوة ولا بالرغبة فى أن انتـــزع نفسى منها ..

ولما أوشك الشتاء أن ينتهى ، بدات ماشا تشعر بالقلق من أجلى .. فاستقر رايها على أن تصحبنى فى رحلة الى الخارج ، وهو قرار كان يمكن تحقيقه .. ولكنه كان يتطلب مالا ، فى وقت كنا لا نكاد

تعرف فيه ماذا كان دخلنا من الميراث الذى تركته والدتنا ، وكنا نترقب فى كل يوم مجىء الوصى علينا ، وكان لا بد من مجيئه ليفحص حالة أعمالنا ..

وقد جاء أخيرا خلال شهر مارس ..

وقالت لى ماشا - ذات يوم - بينما كنت أهيم كالظل بلا عمل فى كل ركن من أركان البيت دون أية فكرة فى رأسى أو رغبة فى قلبى : « الحمد لله .. هاهو ذا « سيرج ميخايلوفتش » قادم للعشاء » ثم أضافت تقول بعد لحظة صمت : « ويجب أن تتزينى ياصغيرتى كاتيا (١) .. ماذا عساه يظن بك ؟ .. انه يحبكما أنتما الاثنتين ! »

وكان سيرج ميخايلوفتش أقرب الجيران الينا .. وكان صديقا للمرحوم والدى على الرغم من أنه كان يصغره فى السن بكثير . وفضلا عن ذلك التغيير المستحب الذى أحدثه وصوله فى مشروعاتنا للمستقبل ، باتاحته الفرصة لنا لامكان مغادرة الريف ، فاننى كنت قد اعتدت منذ الطفولة أن أحبه وأحترمه ..

وربما كانت ماشا تنصحنى بأن أتزين لأنها كانت تقدر أن تغيرا آخر كان لابد أن يحدث ، وأن سيرج كان الشخص الوحيد - من بين كل معارفى - الذى كان يؤلمنى أن أبدو أمامه فى صورة غير مستحبة فى يوم من الأيام ، لا لأننى كنت أشعر نحوه بتعلق قديم وحسب - شأن كل فرد فى البيت ، ابتداء من ماشا وسونيا الى آخر خادم فيه - ولكن لأن هذا التعلق كان يتخذ طابعا خاصا من عبارة كانت والدتى قد قالتها أمامى .. قالت ذات يوم : « انه مثال الزوج الذى أتمناه لك » وفى ذلك الحين ، بدت لى فكرة كهذه غير مستساغة ، بل وغير مرغوب فيها .. اذ أن البطل الذى كنت أتخيله كان يختلف كل الاختلاف ! .. فبطلى أنا كان ينبغى أن

---

(١) « كاتيا » تعنى « كاترين »

يكون شابا نحيلا رشيقا .. وكان سيرج ميخايلوفتش على العكس اكبر سنا ، كان طويل القامة قوى البنية .. وعلى قـــدر ما كنت استطيع ان احكم ، كان ذا مزاج لطيف وطابع محبوب للغــاية . ومع ذلك ، كان كلام والدتى قد تغلغل من قبل فى خيالى .. وقبل ست سنوات ــ وقت أن كنت فى الحادية عشرة ــ كان يخاطبنى بغير كلفة ،وكان يلعب معى ويدعونى « بالبنفسجة الصغيرة » . ومنذ ذلك الحين ، كنت أسأل نفسى فى خوف عما عسى ان افعل لو بدا له يوما أن يتزوجنى !

وقبيل العشاء الذى اضافت اليه ماشا طبقا من « السبـانخ » وآخر من الحلوى ، وصل سيرج ميخايلوفتش ، ونظرت من النافذة فى اللحظة التى كان يقترب فيها من البيت فى عربة صغيرة ... وما كاد يبلغ المنعطف حتى اسرعت بالذهاب الى الصالون ، وذلك حتى لا اظهر اننى انتظرته على الاطلاق ، ولـكننى حينما سمعت حركة فى غرفة الانتظار يتبعها رنين صوته المجلجل ووقع خطوات ماشا ، تخلى عنى صبرى وخففت بنفسى الى لقائه !

كان ممسكا بيد ماشا .. وكان يتحدث اليها بصوت مرتفع .. وما كاد يلمحنى حتى توقف عن الكلام ، ونظر الى لبضع ثوان دون أن يحيينى .. فاوقعنى هذا منه فى حيرة شديدة ، وشعرت بالدماء تصعد الى وجنتى !.. ثم قال لى بصوته ذى اللهجة البسيـطة الحاسمة ، وهو يترك يد ماشا ويقترب منى : « كاتيا .. هل يمكن أن تكونى انت يا كاتيا ؟.. هل يمكن أن يتغير المرء هكذا ؟.. كم كبرت !.. بالامس كنت بنفسجة .. واليوم وردة متفتحة »

وبيده العريضة ، امسك بيدى وشد عليها بقوة .. الى حـد انه كاد أن يؤلمنى ، وظننت أنه سيقبلها فانحنيت أمامه ، ولـكنه اخذها مرة أخرى ونظر مباشرة فى عينى بنظرته المرحة الحازمة

***

كانت قد انقضت ستة اعوام لم اره فيها ، ولاحظت انه قـد

تغير كثيرا .. فقد كبر فى السن ، واسمرت بشرته ، وترك سالفيه ينموان ، وهو أمر كان لايلائمه كثيرا .. ولكنه احتفظ على الدوام بنفس الخصال البسيطة ، والوجه المنبسط الامين ذى الملامح المعبرة ، وبريق عينيه الذى يشع صفاء ، وابتسامته الجميلة التى تشبه ابتسامة طفل

ولم تنقض خمس دقائق حتى تخلى عن موقف الزائر البسيط ، واتخذ حيالنا موقف الضيف الذى يرفع الكلفة .. بل انه اتخذ نفس هذا الموقف حيال جميع من كانوا فى البيت الذين راحوا يتسابقون فى تقديم خدماتهم له ، ويظهرون له سرورهم البالغ لوصوله ..

ولم يتصرف سيرج ميخايلوفتش تصرف الجار الذى يزور منزلا بعد وفاة أم ، معتقدا ان من واجبه ان يعبر وجهه عن العطف والمواساة .. وانما بدا — على العكس — مرحا كثير الحديث ، ولم يقل كلمة واحدة عن والدتى ، حتى اننى بدأت أشعر بأن عدم اكتراثه هذا غريب .. بل وغير لائق من جانب رجل يرتبط بنا بصلة وثيقة .. ولكن سرعان ما ادركت أن هذا لم يكن عدم اكتراث منه ، وانه كان يضمر فى نفسه نية تحتم على أن أعترف له بالجميل ..

وفى المساء ، قدمت لنا ماشا العشاء بالصالون — فى نفس المكان الذى اعتدنا ان نتناوله فيه أيام والدتنا — وجلست انا وسونيا الى جوارها ، واحضر لها « جريجوار » العجوز غليونا قديما لوالدى كان قد وجده .. واخذ يذرع أرض الغرفة ، تماما كما كان يفعل فيما مضى ..

وتوقف جريجوار فجاة وقال لنا :

— لشد ما تغير هذا البيت تغيرا مروعا يدعو الى التفكير !

فاجابت ماشا وهى تتنهد وتضع الغطاء فوق وعاء الشاى الذى كان يغلى على الموقد :

ـ نعم ...

ونظرت الى سيرج ميخايلوفتش ، وقد أوشكت أن تنفجر باكية ..

وسألني سيرج قائلا :

ـ انك تتذكرين والدك دون شك ؟ ! ..

ـ قليلا ..

فقال فى بطء وهو يلقى من فوق رأسى نظرة شاردة ، وقد بدت على وجهه دلائل التفكير :

ـ كم كان يكون طيبا بالنسبة اليك لو كان والدك اليوم لايزال على قيد الحياة !

ثم اضاف يقول فى لهجة اكثر بطئا : « لقد احببته كثيرا ... »

وفى تلك اللحظة ، بدا لى أن عينيه كانتا تلمعان ببريق أخاذ ..

وصاحت ماشا تقول :

ـ وها هو ذا الله قد اخذ والدتنا كذلك !

وفى الحال ، ألقت المنشفة على وعاء الشاى ، ثم أخرجت منديلها وأخذت تجهش بالبكاء

وقال سيرج :

ـ نعم .. لقد حدثت تغيرات مروعة فى هذا البيت ..

قال هذا ونظر خلفه ، ثم رفع صوته قائلا : « اعزفى لى شيئا يا كاتيا الكساندروفنا » !

وقد سرنى انه طلب منى هذا الطلب فى الفاظ بسيطة للغاية تنطوى على صداقة آمرة ، فنهضت وذهبت الى جواره ..

فقال سيرج ، وهو يفتح نوتة موسيقية لبيتهوفن : « خذى .. اعزفى لى الحركة البطيئة من هذه (السوناتا) .. »

ثم اضاف قائلا : « أرينى كيف تعزفين » .. وذهب ليشرب قدح الشاى فى ركن من الصالة

ولست ادرى لماذا شعرت بانه كان من المحال أن أرفض ما طلب ، او أن أتظاهر بالرفض ، بحجة انني لا أجيد العزف .. بل انني جلست ـ على العكس ـ الى البيانو في خضوع ، وبدات اعزف وانا ابذل جهد طاقتي ، بالرغم من أنني كنت خائفة بعض الشيء من تقديره لعزفي ، خاصة وانني كنت اعرف مدى درايته بالموسيقى وتذوقه لها ..

ونقلني هذا اللحن البطيء الى أحاديثنا التي جرت قبل تناول الشاي ، وكانني اتذكر شيئا بعيدا .. وكان عزفي لابأس به ، وانا واقعة تحت تاثير هذا الشعور ، ولكنه لم يشأ ان يدعني انتقل الى عزف الحركة الثالثة من « السوناتا »

وقال وهو يقترب مني :

ـ كلا .. انك لن تعزفيها جيدا .. قفي عند هذه المقطوعة الاولى التي لم تكن سيئة ، واري انك تفهمين الموسيقى ...

وقد غمرني هذا الاطراء المعتدل بالفرح الى حد انني شعرت بالدماء تصعد الى وجنتي ..

وكان جديدا عي ، ولطيفا جدا بالنسبة الي ، أن يحدثني صديق للاسرة بطريقة جادة ـ فيما بيني وبينه ـ لا كما لو كان يتحدث الى طفلة ، كما كان يفعل قديما ..

وحدثني سيرج عن والدي ، فقص علي كم كانا دائمـــا على وفاق ، وعاشا معا عيشة لطيفة بينما كنت منهمكة في لعبي وعاكفة على كتبي المدرسية .. وبدا لي والدي لاول مرة من خـلال هذا الحديث ، ذلك الرجل الطيب البسيط الذي لم أكن قد عرفته حتى ذلك الحين . وسألني ايضا عما احبه ، وما أحب قراءته .. كما سالني عما كان في نيتي أن أفعل ، وكان خلال ذلك يوجـه الي النصح . ولم يعد لي حواري ذلك الرجل المرح الذي كان يحب المزاح و « المعاكسة » ، بل بدا لي سيرج رجلا جادا صريحا ودودا ، وشعرت نحـــوه في نفس الوقت باحترام لا ارادي ممــــزوجا

بالاستلطاف . وكان هذا الشعور حلوا ولطيفا فى نفسى ، وكنت احس معه ـ أثناء الحديث ـ بتوتر كان يشملنى على نحو لاشعورى، وكانت كل كلمة انطق بها تشعرنى بالخوف ، وكنت أتمنى كثيرا أن اكون أنا نفسي جديرة بعطفه ، وهو الذى كان الى ذلك الحين لايعطف على الا بوصفى ابنة لوالدى !

وعادت اليامابشا بعد ان لازمت سونيا حتى استغرقت فى النوم، وشكت الى سيرج من خمولى الذى كان يؤدى دائما الى أننى كنت لا اجد شيئا اقوله

فقال متبسما ، وهو يهز رأسه نحوى فى عتاب :

ـ آه ! .. انها لم تحدثنى اذن عما هو أهم !

فاجبته قائلة :

ـ ماذا كان عندى لاحدثك عنه ؟ .. أو تريد ان أقول لك اننى كنت اتضايق كثيرا .. ولكن هذا الضيق سينتهى ..

وكان يبدو لى الآن حقا أن ماكان بى من الضيق سينتهى ، بل انه كان قد زال بالفعل ولن يعود ... !

واستمر فى حديثه قائلا :

ـ ليس من الصواب الا يعرف المرء كيف يحتمل الوحدة .. أمن الممكن ان تكونى حقا قد اصبحت آنسة ؟

فاجبته قائلة وأنا اضحك :

ـ طبعا .. اننى اعتقد اننى اصبحت كذلك !

ـ كلا ، كلا .. او على الاقل : انك اصبحت آنسة ماكرة لاتعيش الا ليعجب بها الناس ، وحين تكون على انفراد يتملكها الخمول ولا يعود يعجبها شىء .. وهى تعمل كل شىء من اجل المظهر وحسب ، ولا تفعله لذاته ..

فقلت لمجرد أن اقول شيئا :

ـ ان لديك هنا فكرة حسنة عنى !

فاجاب قائلا بعد لحظة صمت :

ـ كلا .. ان فيك شيئا من والدك ..

واحدثت نظرة سيرج الطيبة اليقظة مرة اخرى سحرها فى نفسى واشاعت فى اضطرابا غريبا ..

وفى تلك اللحظة فقط ، لاحظت ان خلال هذا الوجه الذى كان يبدو مرحا لاول نظرة ، وتحت هذه النظرة التى ينفرد بها وحده والتى يبدو للمرء لاول وهلة انه لا يقرأ فيها الا الصفاء .. لاحظت ان تفكيرا عميقا كان يمتزج فى اعماق نفسه بمسحة من الحزن ، وان ذلك كان يزداد بمرور الوقت شدة ووضوحا !

واستطرد سيرج يقول :

ـ ينبغى الا تضايقى .. فلديك الموسيقى التى تهمينها،ولديك الدراسة .. والكتب ، وامامك حيـاة بأسرها .. وانت الآن فى اللحظة التى ينبغى ان تتأهبى فيها للحياة بحيث لا تجدين مجالا للشكوى منها فى المستقبل .. وان لم تفعلى ذلك ، فبعد عام يكون قد فات الاوان

كان سيرج يحدثنى هكذا على نحو مايفعل الوالد او العم .. وكنت ادرك انه كان يبذل جهدا مستمرا ليبقى دائما فى مستواى .. وكان هذا يصدمنى بعض الشيء ، وكان يحز فى نفسى أن يعتقد اعتقادا راسخا بأنى ادنى منه ادراكا ومعرفة .. ولكن كان يبدو لى لطيفا من ناحية اخرى ان يعتقد ان من واجبه ان يبذل هـذا الجهد فى سبيل توجيهى وارشادى ..

وانقضت بقية السـهرة فى حديث بينه وبين ماشـا عن الاعمال ..

وقال لى وهو ينهض اخيرا ويقترب منى ، ثم يمسك بيدى :

ـ والآن .. طاب مساؤك ياعزيزتى كاتيا ..

وسألته ماشا قائلة :

ـ متى نراك ؟

فقال وهو لا يزال يمسك بيدى :

ــ فى الربيع .. اننى راحل الان الى «دانيلوفكا» ، حيث توجد أملاكنا الاخرى .. وساشرف ــ بعض الوقت ــ على العمل هناك ، وادبر ما أستطيع ان ادبره ، ثم أمر بموسكو بعد ذلك .. وفى الصيف يستطيع كل منا ان يرى الاخر ..

ــ ولماذا هذا السفر لوقت طويل ؟

قلت له ذلك وقد آلمنى نبأ سفره .. اذ كنت آمل فى الواقع أن اراه كل يوم ، وشعرت فجأة بصدع شنيع فى قلبى .. ومن المحتمل ان يكون ذلك قد بدا فى عينى ، وفى نبرات صوتى ..

وقال لى سيرج بهجة بدت لى راكدة وباردة اكثر مما ينبغى :

ــ هيا .. اشغلى نفسك اكثر من هذا ، واطردى الكآبة بالنسيان ..

ثم أضاف قائلا وهو يقلب يدى دون ان ينظر الى : « سوف أراك مرة اخرى فى الربيع .. »

وفى المدخل ، حيث تبعناه لتوديعه .. أسرع بارتداء معطفه .. ومرة أخرى بدا عليه انه يتحاشى ان ينظر الى .. فقلت فى نفسى : « انه يكلف نفسه بهذا جهدا لا طائل تحته .. فهل من الممكن ان يفكر ــ وهو ينظر الى ــ فى ان يسعدنى ويسبب لى سرورا عظيما؟ انه رجل ممتاز ، وطيب لغاية .. هذا كل ما فى الامر »

ومع ذلك ، فقد لبثت انا وماشا وقتا طويلا دون ان ننام ، ونحن نتابع الحديث ، لا عنه وانما عن الكيفية التى ستمضى بها الصيف ، وعن المكان والطريقة التى سنقضى بها الشتاء .. انها مشكلة ضخمة ! لماذا ؟ .. لقد كان يبدو لى فى بساطة ووضوح أن الحياة يجب ان تكون سعيدة حافلة بأسباب السعادة .. وبالنسبة للمستقبل ، كان يستحيل على ان اتصور شيئا آخر غير السعادة ، كما لو كان مقرنا المعتم القديم فى بوكروفسكى قد امتلأ فجأة بالحياة والنور

الفصل الثاني

أشجار الكرز

نشوة الحب

واقبل الربيع .. وتبدد ماكان قد الم بي من الضيق ، لتشيع في نفسي احزان الربيع الحالمة التي تثيرها الامال المجهولة والرغبات المكبوتة .. ومع ذلك ، لم تعد حياتي كما كانت في بداية الشتاء ، اذ اصبحت اعني بسونيا وبالموسيقى والدراسة ، وكنت اذهب الى الحديقة حيث كنت اهيم وقتا طويلا ، طويلا جدا ، وانا وحيده خلال الممرات ، وكنت اجلس في بعض الاحيان على مقعد من المقاعد .. والله يعلم ماكنت افكر فيه وماكنت آمله واتمناه !

وكنت اسند خدي في بعض الاحيان الى راحة يدى ، واتكىء على نافدة غرفتي ، وخاصة في الليالى المقمرة ، واظل هكذا حتى الصبح .. واحيانا اخرى ، كنت انزل ـ دون أن يعلم ماشا ـ الى الحديقة ، وان ارتدى ثياب النوم ، ثم امر الى البركة وسط الندى ، وقد ذهبت ذات مرة حتى الحقول .. او كنت اتنزه وحدى الليل بطوله في ارجاء الحديقة الكبيرة !

والآن ، يصعب على ان اتذكر ـ أو على الاقل ان افهم ـ تلك الاحلام التي كانت تراود خيالى وتملؤه في ذلك الحين .. وحتى لو استطعت ان اتذكرها ، فانه يصعب على أن اصدق أن تلك الاحلام كانت احلامي ، نظرا لشـدة غرابتها وتجاوزها حدود حياتى الواقعية !

***

وعاد سيرج ميخايلوفتش من جولته في اخريات شهر مايو كما وعدنى ..

وجاء لرؤيتنا ذات مساء ، بينما كنا لا نتوقع مجيئه على الاطلاق .. وكنا نجلس يومئذ في شرفة البيت ونتاهب لتناول

الشاي .. وكانت الحديقة بأسرها قد اكتست ثوبا من الخضرة ، وفي كل موضع في بوكروفسكي كانت البلابل قد اقامت مساكنها بين اغصان الشجر واوراق النبات . وهنا وهناك ، كانت كتل كثيفة من الزهر ترفع رءوسها ذات الالوان البيضاء والبنفسجية وهي توشك ان تتفتح . وكانت أوراق الاشجار في الممر الذي تقوم على جانبيه أشجار البلوط تبدو لامعة شفافة تحت أشعة الشمس الغاربة . وكانت الظلال المعشبة تمتد على طول الشرفة ، بينما كان ندى المساء الحرير يغمر الاعشاب . ومن الفناء الذي يقع خلف الحديقة ، كانت تسمع آخر صوضاء النهار وأصوات الاغنام وهي تعود الى حظيرتها ..

***

وكان « نيكون » ، المجنون المسكين ، يمر — في تلك اللحظة — اسفل الشرفة وهو يحمل برميلا .. وفجأة ، انبثق سيل من الماء البارد من خرطوم « الرش » ، وانطلق ليرسم دوائر سوداء على الارض التي حرثت حديث حول سيقان شجر «الدهليا» . وأمامنا في الشرفة فوق غطاء ناصع البياض ، كان أبريق الشاي يلمع وهو على فوق الموقد ، وقد انعكس منه بريق ساطع ، يحيط به وعاء من المربى وبعض الكعك والحلوى .. وكانت ماشا تغسل اقداح الشاي بيديها البضتين كربة بيت ممتازة . أما انا ، فكنت جائعة ... فلم انتظر الشاي ، والتهمت رغيفا باكمله مدهونا بطبقة كثيفة جدا من القشدة الطازجة .. وكنت أرتدي في ذلك المساء « بلوزة » من التيل ذات أكمام مفتوحة بعض الشيء ، واغطي رأسي بمنديل كنت الف به شعري المبتل ..

وكانت ماشا أول من لمح سيرج من خلال النافذة ، فصاحت تقول :

— آه ! هذا سيرج ميخايلوفتش .. لقد كنا نتحدث عنك منذ لحظات ..

فنهضت لاذهب لابدال ملابسى ، ولكنه فاجانى فى نفس اللحظة التى كنت اتجه فيها نحو الباب ، وقال وهو ينظر مبتسما الى راسى والى المنديل الذى كان يغطيه :

ـ هيا ياكاتيا .. ليست هنـاك رسـميات فى الريف ، وانك لا تلتزمين مثل هذا التشـدد أمام جريجوار ، واريد ان أكون مثله بالنسـبة اليك ...

ولكن .. كان يبدو لى واضحا ان سيرج لم يكن ينظر الى كما يفعل جريجوار ، وقد حيرنى ذلك وأشاع فى نفسى الاضطراب فاجبته قائلة وانا ابتعد :

ـ ساعود فى الحال

فصاح قائلا وهو يتتبع خطاى :

ـ اى ضرر فى ذلك ؟ .. انك تبدين هكذا كفلاحة شابة

وقلت فى نفسى ، وأنا أصعد الدرج مسرعة لابدل ملابسى :

ـ لشـد ماكانت غريبة نظرته الى ! واخيرا .. نحمد الله على أنه قد أتى وسنكون أكثر مرحا..

والقيت على نفسى نظرة فى المرآة ، ثم انطلقت أنزل فى سرعة وقد تملكنى السرور . وبلغت الشرفة وانا لاهثة الانفاس دون أن أخفى شعفى ..

***

كان سيرج جالسا الى جوار المائدة يتحـدث الى ماشـا عن الاعمال . وحين لمحنى ، القى الى بابتسامة خفيفة ، ثم تابع الحديث .. وكانت اعمالنا ـ على حد قوله ـ فى حالة مرضية لنهاية . ولم يعد امامنا الان الا ان نقضى الصيف فى الريف ، ثم يكون فى وسعنا ان نرحل بعد ذلك الى مدينة بطرسبرج او الخارج لنعلم سونيا

وقالت ماشا :

ـ كم يكون جميلا لو اتيت معنا الى الخارج ، فاننا اذا رحلنا وحدنا فسنكون كأننا فى غابة ..

فاجاب وهو يمزج بين الجد والهزل :

ـ آه !.. ليت الله يمكنني من ان اطوف معك حول العالم !

فقلت حينئذ :

ـ ليكن ذلك .. هيا ! لندر معا حول العالم !

فهز راسه مبتسما ثم قال :

ـ ووالدتي ؟ ... واعمالي ؟ ... هيا ! دعينا من هذا وقصي علي كيف قضيت الوقت .. ايمكن ان تكوني قد اكتأبت ايضا ؟

وقصصت على سيرج انني عرفت بدونه أن أشغل نفسي ، والا اتضايق ، وأكدت له ماشا ذلك .. فأثنى علي ووجه الي كلمات ونظرات مشجعة وكأنني طفلة ، وكان له فعلا الحق في ذلك . وبدا لي من المناسب ان أخبره تفصيلا وبصراحة تامة بكل مافعلته من خير ، واعترف له بكل ماكان يمكن ان يستحق تأنيبه وكأنني اعترف امام قسيس !

***

وكانت الامسية من الجمال بحيث بقينا في الشرفة بعد أن رفعت مائدة الشاي .. وكان الحديث ممتعا الى حد أنني لم ألاحظ ان ضوضاء البيت كانت تتلاشى من حولنا دون أن أشعر .. ومن كل مكان ، كانت الروائح النفاذة تنبعث من الازهار ، وكانت قطرات الندى الغزيرة تغرق الاعشاب ، وكانت البلابل تغرد على مقربة منا وهي تلوذ باغصان الورود الكثيفة .. ثم تعود الى الصمت حين تسمع أصواتنا .. وكانت السماء المرصعة بالنجوم تبدو كما لو كانت تهبط لتقترب من رءوسنا ..

ولم افطن الى هبوط الليل الا حينما سمعت فجأة حفيف وطواط مكتوم ، كان يرفرف مذعورا حول ردائي الابيض .. فالتصقت بالجدار وانا على وشك أن أصيح ، غير أن الوطواط فر من تحت سقف الشرفة وانطلق يهيم في ظلام الحديقة ..

وقال سيرج ميخايلوفتش ، وهو يقطع علينا الحديث :

ــ كم أحب بيتكن وادشكن فى بوكروفسكى .. ان المرء لا يسعه الا أن يتمنى البقاء فى هذه الشرفة كل حياته !

فاجابته ماشا قائلة :

ــ حسنا .. فلتبق فيها اذن ..

فقال سيرج :

ــ آه ! ابقى ؟ ان الحياة لا تتوقف !

فعادت ماشا تسأله قائلة :

ــ لماذا لا تتزوج اذن ؟.. انك خليق بأن تكون زوجا ممتازا

فقال وهو يبتسم :

ــ لماذا ؟ .. لان الناس لم يعودوا ــ منذ زمن طويل ــ يعتبرونني رجلا يصلح للزواج ..

ــ ماذا ؟ .. فى السادسة والثلاثين من عمرك وتزعم انك تعبت من الحياة ؟

ــ نعم ، بالتأكيد .. بل انني متعب الى حد انني لم اعد اطلب سوى الراحة .. ولكي يتزوج المرء ، يجب ان يكون لديه ما يقدمه غير التعب

واوما الى براسه واستطرد يقول : « هيا .. اسالى كاتيا .. فهى يحق ذلك الشخص الذى يجب أن تزوجه ، ويكون دورنا نحن أن ننعم بسعادتها مع من تتزوجه ! »

***

ولمست فى نبرات صوته حزنا دفينا ممزوجا ببعض التوتر . وساد الصمت بيننا لحظة ، ثم قال سيرج وهو يتجه نحو المائدة :

ــ تصوروا .. لو انني تزوجت فجاة فتاة شابة فى السابعة عشرة ككاتيا الكسندروفنا !.. ان هذا كان خليقا بأن يكون حادثا مؤسفا ! حقا انه مثل جميل ينطبق تماما على هذا الطرف ..!

واخذت اضحك فى انطلاق ، وان كنت لم استطع ان ادرك على

الاطلاق لماذا كان يبدو مسرورا هكذا ، ولا هذا الظرف الذى كان يعنيه !

والتفت الى سيرج وقد بدا عليه انه يمرح ، ثم أضاف قائلا : « حسنا ! ضعي يدك على قلبك وقولي لي الحقيقة .. أفلا تكون كارثة كبيرة بالنسبة اليك أن يرتبط حبانك برجل عجوز فاتزمنه، واصبح لا يريد الا البقاء حيث هو .. بينما انت ـ يعلم الله ـ تودين أن تجرى هنا وهناك وفق هواك ؟ »

ولزمت الصمت ، وقد ألم بي الضيق ، ولم أدر بماذا اجيب ! فضحك سيرج ثم قال : « انني لم آت لاطلب يدك .. ولكن ، قولي لي حقا اذا كنت تحلمين بهذا الزوج ، وانت تسرحين في المساء خلال ممرات الحديقة ، وان هذا الزواج لا يكون مصيبة كبرى ؟ »

فشرعت أقول :

ـ ليس الى هذا الحد ...

فقاطعني قائلا :

ـ وانه لن يكون كذلك خيرا كبيرا !

ـ نعم .. ولكني قد أكون مخطئة ...

ـ هاأنتذى ترين يا ماشا انهما على حق .. وأني لمعجب بصراحتها ومسرور تماما لان هذا الحديث قد دار بيننا ، وان كنت أعرف بأن زواجا كهذا يكون بالنسبة الى كارثة مابعدها كارثة ..

فقالت ماشا وهي تتنهد :

ـ ذلك من رجل فريد ! انك حقا لم تتغير كثيرا ..

وغادرت ماشا الشرفة لتأمر بتقديم العشاء ، فلبثنا صامتين .. وكان كل شيء من حولنا صامتا كذلك ..

***

وكان البلبل الوحيد قد استأنف تغريده من جديد .. ولم يكن تغريده في هذه المرة تغريد بداية المساء المتقطع المتردد ، بل تغريد الليل الهادىء البطيء الذى كانت نغماته تملأ الحديقة بأسرها ..

وكان هناك بلبل آخر قد أخذ يرد ـ لأول مرة ـ على زميله النشيط من نهاية الحديقة .. وحينئذ ، صمت البلبل القريب وكأنه كان يستمع اليه ، ثم عاد الى التغريد فى صوت صداح كان صداه يتردد فى الهواء .. وكان صوتهما يترنم فى هدوء بالغ وسط عالم الليل هذا الخاص بهما ـ والذى كنا فيه كالغرباء ! .. وكان البستانى ذاهبا فى تلك اللحظة الى غرفته لينام ، وكان وقع حذائه الضخم يدوى فى ممرات الحديقة وهو يبتعد رويدا رويدا .. وفجأة ، سمعنا صفيرا تردد مرتين آتيا من ناحية الجبل ، ثم عاد كل شىء الى الصمت فلم نعد نسمع حتى حفيف الاشجار ..

وهبت نسمة عابرة حملت الينا مزيدا من عبير الازهار .. وكان السكون يحيرنى ، وكنت لا ادرى ماذا اقول . ونظرت الى سيرج ، وكانت عيناه تحدقان فى وهما تلمعان فى الظلام ، فتمتم يقول :

ـ ان الحياة طيبة حقا فى هذا العالم !

ولست أدرى لماذا تنهدت حينما سمعت هذه الكلمات ، فعاد سيرج يقول :

ـ ماذا اذن ؟..

فرددت عبارته قائلة :

ـ نعم .. ان الحياة طيبة فى هذا العالم ..

وساد بيننا الصمت من جديد .. ومرة اخرى ، شعرت بانني فى ضيق ، وجال بخاطرى أننى آلمته وأنا اوافقه على أنه مغرور ، وكنت أريد أن أواسيه ولكننى لم أكن أعرف كيف أعمل ذلك ..

وفجأة ، نهض سيرج واقفا وقال :

ـ ولكن ... وداعا ! ان والدتى تنتظرنى للعشاء .. ولم أكد إراها اليوم ..

ـ اننى كنت اود ان أعزف لك « سوناتا » اخرى

فأجابنى قائلا فى برود ، او بدا لى على الاقل أن نبرات صوته كانت كذلك :

ـ ليكن ذلك في مرة اخرى ..

ثم تقدم خطوة ، وقال وهو يأتي بحركة بسيطة :

ـ وداعا !..

***

وبدا لي حينئذ ـ اكثر من اي وقت آخر ـ انى كنت قد آلمته ، فحزنت لذلك كثيرا .. ورافقته انا وماشا حتى اسفل سلم الشرفة ، ثم مكثنا في الفناء ننظر ناحية الطريق الذي اختفى فيه. وماكاد يتلاشى وقع سنابك جواده حتى احدث اثره حول الشرفة وانامل حديقة البيت . ولبثت طويلا اتخيل كل ماكانت نزواتي تجعلني اتخيله ، وانا واقفة وسط الضباب الذي كانت تسبح فيه ضوضاء الليل !

وعاد سيرج الى زيارتنا مرة ثانية وثالثة ، وزالت آخر الامر تلك الحيرة التي شعرت بها خلال الحديث الغريب الذي كان قد دار بيننا فجاة وعلى غير انتظار ، ولم تظهر هذه الحيرة بعد ذلك ..

وظل يحضر لرؤيتنا ـ خلال الصيف ـ مرتين او ثلاث مرات كل اسبوع ، فالفته الى حد انه حينما كان يطيل الانقطاع عن الحضور ، كان يبدو لي عسيرا ان اعيش هكذا وحدي .. وكنت اغضب لذلك في قرارة نفسي

وما لبث سيرج ان اصبح بالنسبة الي صديقا ودودا ، يتقصى شئوني ويثير في نفسي اجابات صريحة للغاية ، ويسدي الي النصح ويزجي التشجيع ، ويسهرني في بعض الاحيان ، ويوبخني اذا ما اقتضى الامر ذلك ..

ولكن .. على الرغم من جهوده هذه ليظل في مستواي ، كنت اشعر بأن هناك عالما بأسره يكمن في شخصه كنت غريبة عنه ، وكان لايرى ان يقحمني فيه . وكان هذا يجعلني ـ فوق كل شيء ـ اعتبره اكثر نضجا مني ، ويجذبني اليه في نفس الوقت . وكنت اعرف من ماشا والجيران انه كان يعاني بعض مضايقاتمن مشاكل

خاصة بالنبلاء ... عدا عنايته بوالدته العجوز التى كان يقيم معها، وعدا أعماله المتعلقة بشئون الزراعة واشرافه علينا .. ولكنى لم أستطع قط ان أصل الى معرفةموقفه من نفسه ووجهة نظره فىهذا الموقف ، ولم أستطع كذلك أن أعرف ماذا كانت مشاريعه وآماله . وحينما كنت احاول ان أوجه الحديث ليدور حول هذه الشئون ، كان يقطب جبينه بطريقة خاصة وكأنه كان يريد ان يقول : « كفى ! اتوسل اليك .. ماذا يهمك أن تعرفى هذا ؟ » .. ثم يغير مجرى الحديث الى موضوع آخر ..!

وكان ذلك يصدمنى فى بادىء الامر ، ولكننى ألفت ذلك الى حد اننا اصبحنا لا نتحدث ابدا الا فيما يخصنى ، وانتهى بى الامر بأن وجدت ذلك طبيعيا جدا ..

***

وشعرت كذلك فى البداية بشىء من عدم الرضا ، بينما وجدت بعد ذلك ــ على العكس ــ شيئا من السحر ، وأنا ألمس عدم المبالاة التام الذى يكاد يبلغ حد الاحتقار لمظهرى الخارجى ، ولم استطع أبدا أن أفهم من نظراته ولا من كلماته انه كان يجدنى جميلة ، بل على العكس .. كان يقطب حاجبيه ويأخذ فى الضحك حينما كان يقال امامه اننى لست دميمة .. بل لقد كان يروق له ان يبين عيوب وجهى ، وان يغيظنى عن هذا الطريق ..

وكانت الثياب « الموضة » و « تسريحات » الشعر التى كانت ماشا تحب أن تريسنى بها ايام العيد تثير سخريته ، وكان ذلك يحزن ماشا كثيرا ، كما كان يحيرنى تماما ــ فى أول الامر ــ وكنت على حق فى ذلك !

وكانت ماشا قد أيقنت ، فيما بينها وبين نفسها ، اننى كنت أعجب سيرجى ميخايلوفتش ، ولكنها لم تستطع أن تفهم لماذا لا يفضل أن تبدو المرأة التى تعجبه فى أتم زينتها . ولكننى سرعان ماعرفت ماذا يريد .. انه كان يريدنى بسيطة فى كل شىء .. فى

الملبس ، والزينة ، وتصفيف الشعر ، فحرصت على تحقيق مايريد ... في الوقت الذي لم اكن استطيع فيه – انا نفسي – ان أكون بسيطة مع نفسي !

***

كنت اشعر انه يحبني .. ولكن ، ترى هل كان يحبني كطفلة ام كامرأة ؟ ولم أكن الى ذلك الوقت قد القيت على نفسي هذا السؤال ، وكان هذا الحب غاليا لدى وعزيزا على .. ولما أحسست انه كان يعتبرني احسن فتاة في العالم ، صار يحلو لنفسي ان اتمنى ان يستمر هذا الزيف في تعميته . والحق أنني كنت أخدعه على الرغم مني .. ولكني كنت وأنا اخدعه اشعر بأني أتطور الى احسن ، كما كنت اشعر بأن من الافضل أن أكشف له عن بعض الجوانب الطيبة في نفسي ، من ان اكشف له عنها في مظهري .. فشعري ، ويداي ، ووجهي ، ومشيتي – مهما بلغت من جمال أو قبح – فقد استطاع ان يقدرها بنظرة واحدة ، وكان يعرف تماما أنني – حتى ولو كنت اقصد خداعه – لن استطيع أن أضيف شيئا الى مظهري الخارجي . وكان سيرج ، على العكس ، لا يعرف حقيقة روحي .. لانه كان يحبها ، ولأن روحي كنت في تلك اللحظة بالذات في أوج نموها وتفتحها .. واخيرا ، لانه كان من اليسير على ان اخدعه في مثل هذا المجال ، وكنت اخدعه فيه حقا ..

وكم كان شعوري نحوه لطيفا محببا حينما فهمت هذا كله حق الفهم !.. فهذا الاضطراب بلا سبب ، وهذه الحاجة الى الحركة التي كنت تحتشم فوق صدري على نحو ما .. كل ذلك قد اختفى تماما . وكيفما كانت نظرته الى : في وجهي ، او من الجانب ، وأنا جالسة ، او واقفة .. وسواء اكان شعري منثورا أو مصففا ، فانه كان ينظر الى دائما في سرور ، وكان يعرفني من قمة رأسي الى اخمص قدمي . وقد قدرت انه كان مسرورا مني كما كنت مسرورة منه . واعتقد انه لو قال لي فجأة كالآخرين – وعلى غير عادته – اني احبك .. فان ذلك كان خليقا بأن يغضبني بعض الشيء !

ولكن ، على العكس ، يا للسرور والصفاء اللذين كنت اشعر بهما في اعماق نفسي حينما كان يسمع كلاما يخرج من فمي .. فيتاملني في اهتمام ، ويقول في انفعال وبلهجة كان يحرص على ان تمحضني :

ـ نعم ، نعم .. ان فيك شيئا ! .. انك فتاة طيبة ، ومن واجبي أن أقول لك ذلك ..

ترى لماذا كنت اتقبل هذا الاطراء الذي كان يملأ قلبي سرورا وكبرياء ؟ أكان ذلك تارة لانني قلت انني استلطف حب جريجوار المحزوز لحفيدته ؟ ام تارة أخرى لانني انفعلت لحد البكاء لانني اقرا شعرا او رواية ؟ ام لانني فضلت «موزار» على «شولوف» ؟ وكان ذلك الحدس غير المالوف هو الذي يمكنني من أن اخمن ما هو خير ما يحبه سيرج .. كان ذلك الحدس بالنسبة الي مثارا للدهشة .. ذلك انني لم اكن اعرف بعد بطريقة ايجابية ما هو خير ، وما يحبه . وكانت أكثر عاداتي السابقة وميولي لا تروق له ، وكانت تكفي حركة لا تكاد تلحظ من حاجبيه او نظرة سريعة منه لافهم ان ما اريد أن افعله كان لا يعجبه .. وكان يكفي ان ينم وجهه عن الشفقة الممزوجة بالاحتقار لاعتقد على الفور انني لم اعد احب ما كنت قد احببته .. وكنت استطيع ان اعرف سلفا ما سيقوله لي ، لو انه جال بخاطره أن يسدي الي نصيحة ، او يبدي ملاحظة عن امر من الامور

***

لقد كان سيرج اذا اراد ان يسألني عن شيء ، وجه الي نظرة .. وكانت نظرته تنتزع مني عادة الفكرة التي يريد ان يعرفها . ولم تعد كل أفكاري وتشد ، وكل مشاعري ملكا لي .. بينما اصبحت افكاره ومشاعره فجاة هي نفس افكاري ومشاعري .. ذلك انها كانت تنفذ الى حياتي وتجعلها باسمة مشرقة ..

وبطريقة غير محسوسة ، بدات أرى كل الاشياء من حولي ، وماشا ، وخدمي ، وسونيا ، ومشاغلي بعينين آخريين .. وبدت

لى فجأة تلك الكتب ، التى كنت اقراها لاقتل ما بى من الضيق ، اعظم سحر ممتع فى الحياة . وذلك لسبب واحد ، وهو اننــا كنا نتحدث معا عن الكتب ، وكنا نقرأ معا كل ما كان يحضره منها الى .. وكنت قبل ذلك انظر الى عملى مع سونيا والى الدروس التى اعطيها لها على انها واجب مؤلم ، كنت احرص على تاديته بدافع من مجرد الشعور الواجب .. اما الآن ، وقد اصبح سيرج يأتى احيانا ليحضر معنا هذه الدروس ، فقد اصبحت اشعر بسرور كبير وانا ارقب عن كثب ذلك التقدم الذى كانت تسجله شقيقتى

وكان يبدو لى مستحيلا فيما مضى ، ان احفظ مقطوعة موسيقية باكملها .. أما الان وانا اعرف انه سيستمع اليها وقد يصفق لها ، فلم اعد اتردد فى ان اكرر عزفها اربعين مره متتاليه ، حتى انتهى الامر بماشا المسكينة ان تضع فى اذنيها قطعا من القطن ، فى الوقت الذى كنت لا اشعر فيه انا باقل ملل او ضيق .. واصبحت اناملى تعزف هذه « السوناتا » القديمة بطريقة مختلفة تماما ، وافضل بكثير مما كنت افعل من قبل ..

***

وحينئذ فقط ، ادركت انه لم يكن هناك ما يضطـــر ماشا ان تكون لنا بمثابة الام عير حبها لنا .. والحق انها كانت لنا ايضــــا بمثابة الصـــديقة التى تحقق جميع نزواتنــــا .. كما ادركت كل تضحيات هـــذه المخلوقة الودود ، وتفانيها ، ومدى التزاماتى نحوها .. حتى اننى ازددت حبا لها لهذا السبب . وكان سيرج قد علمـى أيضا ان ارعى خدمنا وفلاحينا ومعاونينا ، فاصبحت انظر اليهم جميعا بمنظار جديد ..

والغريب فى الامر اننى كنت اعيش بين هؤلاء جميعا .. رغم اننى بلغت السابعة عشرة من عمرى .. وانا احس باننى غريبة عنهم تماما وكأننى اعيش مع اناس لم يسبق لى ان رايتهم من قبل ... ولم اكن قد فكرت مرة واحدة انهم مخلوقات آدمية تشعر مثلى بالحب

والرغبة والندم .. وانقلبت فجاة حديقة بيتنا وعاباتنا ومزارعنا ، التي كنت اعرفها جيدا منذ أن ولدت ، اشياء جديدة على .. وبدات انظر اليها كما لو كنت اراها لاول مرة ، وادرك كل ما فيها من جمال ..

وكان سيرج على حق دائما حينما كان يقول انه ليس في الحياة سوى مصدر واحد للسعادة ، هو ان يعيش المرء من أجل الآخرين. وكان ذلك يبدو لى غريبا ، وكنت لا افهمه .. ولكن هذه العقيدة تسللت رويدا رويدا الى اغوار نفسي . وفى كلمة واحدة : فتح سيرج أمامى آفاقا جديدة لحياة حافلة بالمتع في الحاضر ، دون أن يغير شيئا من حياتى السابقة ، او يضيف اليها شيئا ، الا أن ينمى فى نفسى احاسيسها الطيبة ومشاعرها النبيلة ..

وكان كل شيء من حولى قد ظل منذ طفولتى مطمورا غامضا .. وقد بدا لى الآن كانما كان ينتظر ان احس بوجوده ليتحدث الى روحي ويغمرها بالسعادة ..

وكثيرا ماكان يحدث خلال هذا الصيف ، أن اصعد الى غرفتى وارتمى على سريرى ـ وهو المكان الذى كانت تراودنى فيه هواجسى القديمة المتعلقة بالربيع ـ واشعر باننى ممتلئة برغبات المستقبل وآماله. وكنت أشعر الى جوار هذا باضطراب آخر كان يحتضننى ؛ مصدره سعادتى الراهنة .. كنت لا استطيع ان انام ، فانهض واجلس على سرير ماشا واقول لها اننى سعيدة لغاية .. وحينما اتذكر ذلك الآن ، اجد انه كان عبثا ان اقوله لها لانها كانت تستطيع ان تراه بنفسها .. وكانت ماشا تقول لى انها هى أيضا لم يعد لديها ما يقلقها ، وانها كانت سعيدة جدا .. ثم تقبلنى فى حنان .. وكنت اصدقها لانه كان يبدو لى ان من العدل ومن الضرورى ان يكون الكل سعداء .. ولكن ماشا كان فى وسعها أن تفكر فى النوم ، وكانت تستطيع حتى أن تتظاهر بالغضب وأن تطردنى من سريرها لتنام .. اما انا فقد كنت ـ على العكس ـ اقلب فى نفسى لوقت طويل آخر جميع الاسباب والظروف التى

تثير في نفسي الشعور بالسعادة .. وكنت انهض في بعض الاحيان من جديد ، واصلي مرة اخرى ، وادعو الله من كل قلبي ، واشكره من اعماقي شكرا جزيلا على السعادة التي غمرني بها ..

***

كان كل شيء في غرفتي هادئا ، عدا انفاس ماشا التي كانت تتردد بانتظام اثناء نومها ، ودقات ساعتها الموضوعة الى جوارها . وكنت اتقلب في فراشي وانا اتمتم بضع كلمات ، واقبل الصليب المعلق في رقبتي . وكانت النوافذ والابواب موصدة .. وكنت اتمنى الا ابرح هذه الغرفة ابدا ، والا يشرق الصباح .. وذلك حتى لا يتبدد هذا الجو المشبع بالصفاء والمتعة الروحية .. وكان يبدو لي ان احلامي وافكاري وصلواتي ودعواتي كانت نسمات مشحونة بارواح تعيش معي ، وترفرف حول سريري ومن فوق راسي ..

لقد كانت كل فكرة من افكاري هي من افكار سيرج ، وكان كل شعوري من شــــعوره . وكنت لا ادرك بعد ما هو الحب ، وكنت اظن ان الحب يمكن ان يكون دائما هكذا ، وان مثل هذا الشعور يمنحه المرء بلا مقابل

الفصل الثالث

موسم الحصاد

لمن أكرس نفسي ؟

وذات يوم ، وكان ذلك في موسم حصاد القمح .. ذهبت بعد العشاء مع ماشا وسونيا لنجلس في الحديقة على مقعدنا المفضل تحت ظلال أشجار « الزليو » على قمة ربوة ، كنا نستطيع من فوقها ان نكتشف الحقول والغابات . وكانت قد انقضت ثلاثة أيام لم يأت فيها سيرج لزيارتنا ، وكنا ننتظره خاصة في ذلك اليوم لأنه وعد « الخولي » بالحضور ليلقى نظرة على المحصول ..

وفي نحو الساعة الثانية ، لمحناه يمر على مرتفع يتوسط حقلا من حقول الشوفان ، فابتسمت لي ماشا ابتسامة ذات مغزى ، وأمرت باحضار بعض الخوخ والكرز اللذين كان يحبهما كثيرا .. ثم تمددت على المقعد واستسلمت لسنة من النوم .. وانتزعت غصنا من اغصان « الزليو » واخذت « أهوى » به على ماشا ، وانا أواصل القراءة .. وكنت التفت ورائي بين لحظة وأخرى لارقب الطريق الذي كان لابد ان يصل منه . اما سونيا ، فقد كانت جالسة على جذع شجرة مقطوع تعد لدميتها مهدا من الخضرة ..

كان النهار شديد الحرارة .. وكانت الغيوم تكون دائرة في الافق بعد ان اظلمت في الصباح ، وكان الجو ينذر بالعاصفة .. وقد اشاع ذلك في نفسي اضطرابا شديدا ، كما هي عادتي ـ على الدوام ـ في مثل هذه الحالات . ولكن السحب اخذت تتفرق منذ الظهر ، وبدات الشمس تظهر وسط سماء صافية ، وصار الرعد لا يزمجر الا في نقطة واحدة .. وظهر بريقه في قلب سحابة ثقيلة بعيدة كانت تمتزج بغبار الحقول عند ملتقى السماء بالارض .. واصبح من الواضح ـ بالنسبة الينا على الاقل ـ اننا لم نعد نخشى انطلاق العواصف في ذلك اليوم .. وكنا نسمع حينئذ ، اننا بقينا طويلا

صادرا من عربة محملة بالقمح ، ونسمع حينا آخر صوت هرات عربات الركاب التى كانت تلتقى ثم تفترق ، وخطوات الحمالين والسائقين وهم يسرعون الى جوار مركباتهم وقد تطايرت ذيول قمصانهم فى الهواء .. كنا نسمع ذلك ونراه فى هذا الجزء من الطريق الذى كنا نستطيع ان نتبينه من مكاننا فوق الربوة . وكان الغبار الكثيف لا يتطاير ولا يسقط على الارض ، ولكنه يظل عالقا بأسوار حديقة المشبة وبأوراق الشجر الشفافة ..

وبعيدا بعض الشيء ، عند مخزن الغلال ، كانت تنبعث أصوات عربات أخرى .. وهناك ، كانت حزم القمح الذهبية تكدس الى جوار ارض فضاء مسورة .. وسرعان ما لمحت عيناى أكواما هرمية تحوم حولها هامات الفلاحين ..

وكان الحر والغبار يغمران كل مكان الا ركننا الصغير المفضل فى الحديقة . ومع ذلك ، كان حشد من العمال يروح ويغدو هنا وهناك وهو شرثر ويمزح وسط هذا الطقس الخانق تحت نار الشمس المحرقة . واخذت اتأمل ماشا وهى نائمة فى رفق على مقعدنا الرطب ، وهى تحتمى بمنديلها القطنى الابيض ، والكرز الاسود اللذيذ الموضوع فى الطبق ، وثيابنا الخفيفة النظيفة للغاية . وكان شعاع الشمس ينعكس ويتموج فى ماء الدورق .. وكنت أشعر وقتئذ بسعادة غريبة . ورحت افكر : ماذا ينبغى ان افعل ؟ .. ترى هل انا مذنبة اذ اشعر بأننى سعيدة هكذا ؟ ولكن كيف ، ولمن أكرس نفسى وسعادتى ؟

***

كانت الشمس قد توارت خلف قمم أشجار البلوط الشامخة فى الحديقة ، وانخفض الغبار واستقر أكثره على الأرض .. واصبحنا فى تلك اللحظة نلمح من بعيد مناظر الطبيعة ، وقد ازدادت وضوحا واشراقا تحت أشعة الشمس المائلة .. وكانت السحب قد انقشعت تماما . وكنت ارى فيما وراء الاشجار العالية اكواما اخرى من حزم القمح الى جوار مخزن الغلال ، ينزل الفلاحون من فوقها ..

ولآخر مرة فى ذلك اليوم ، مرت العربات مسرعة ، وقد اخذت الاجراس المعلقة فى رقاب خيولها تجلجل محدثة موسيقى صاخبة كان صداها يتردد فى الهواء .. وكان غناء القرويات يتردد ممتزجا برنين هذه الاجراس ، وهن عائدات الى بيوتهن تحمل كل واحدة « شوكة » فوق كتفها ، وقد شدت حزاما الى وسطها ..

ولم يحضر سيرج على الرغم من اننى لمحته مرة اخرى منذلحظات طويلة عند سفح التل .. وفجأة ، ظهر فى آخر ممر الحديقة من الناحية التى لم اكن اتوقع حضوره منها قط ، لانه دار حول المرتفع الذى كنا نجلس فوقه ..

وتقدم نحوى سيرج وقد رفع قبعته ، فبدا لى وجهه المشرق الصبوح . ولما وقعت عيناه على ماشا التى كانت لا تزال نائمة ، عض شفته وغمز بعينه .. ثم مشى على أطراف أصابعه ، فادركت على الفور انه كان فى احدى لحظات انشراحه ومرحه دون سبب ظاهر ، وهى لحظات كنت احبه فيها كثيرا وكنا نسميها فيمابيننا : الانطلاق الفطرى . وبدا لى سيرج فى تلك اللحظة كأنه تلميذ هارب من فصله ، وكان السرور والمرح يشعان من قمة رأسه الى اخمص قدميه ..

واقترب منى ، ثم صافحنى قائلا بصوت منخفض :

ــ طاب يومك ايتها « النمسحة الصغيرة » .. كيف الحال ؟ حسنا !

فلم اجب ، ولكننى وجهت اليه نفس هذا السؤال .. فاجاب قائلا :

ــ واننى فى خير حال ، واشعر اليوم باننى فى الثالثة عشرة من عمرى .. أود ان العب بجواد من الخشب ، وان أتسلق الاشجار !

فقلت له وأنا انظر فى عينيه الباسمتين ، واشعر بان هذا « الانطلاق الفطرى » كان يغروينى انا ايضا :

ــ انه « الانطلاق الفطرى » ..

فتمتم قائلا وهو يغمز لي ثانيــة بعينه ، ويكتم ابتســامة على شفتيه :

ــ نعم .. ولكن لمــاذا تريدين اذن أن توقظي ماشا كارلو فنســا المسكينة ؟

والواقع انني لم أكن قد لاحظت انني كنت ــ وانا انظر اليه ــ اضرب بالغصن الذي كان في يدي منديل المربية ، وامس به وجهها، دون ان اشعر ، فانفجرت ضاحكة ..

وقلت له في همس ، وكانني احرص على الا أوقظ ماشا :

ــ لا شك في انها ستقول انها لم تنم !

ولكنني لم اكن ــ في الواقع ــ اهمس لهذا السبب ، وانما كنت احد من المستحب ان اكلمه على هذه الصورة ..

وكان سيرج من جانبه يحرك شفتيه ويقلدني ، وكانما كان هو ايضا يقول لي بصوت منخفض شيئا يجب الا يسمعه احد .. ثم لمح طبق الكرز وتظاهر بانه ستولى عليه خلسة ، ثم انطلق الى سونيا لنجلس مكان الدمية تحت شجرة « التليو » . واوشكت شقيقتي ان تغضب لولا انه صالحها بسرعة عن طريق تنظيم لعبة راحا يلعبانها معه ، وهي سباق في التهام الكرز !

وقلت له وانا ابتسم :

ــ اتريد ان آمر باحضار كمية اخرى من الكرز ؟ . ام نذهب نحن لنحضره

فتناول الطبق ووضع فيه الدمى ، وقال انه من الافضل أن نذهب نحن لاحضاره ..

***

وذهبنا ثلاثتنا الى اشجار الكرز ، بينما كانت سونيا تضحك وهي تعدو خلفه وتجذبه من ذيل معطفه كي يعيد اليها الدمى ، فتنيها اليها ثم التفت الي ، وقال لي في صوت خفيض بالرغم من انه لم يكن هناك احد نخشى ان توقظه :

ـ لماذا لا توافقين على انك « متفسحة » ؟ .. حينما اقتربت منك بعد ما تحديت كل هذا الغبار والحر والتعب ، خيل الى انني اشم رائحة البنفسج .. والحق انه لم يكن هذا البنفسج ذا الرائحة القوية ، بل البنفسج الذي ينمو ـ كما تعرفين ـ وتكون «أول قطفة» منه لا تزال متواضعة ، وتنشق منها رائحة هي مزيج من الجليد الذي يتلاشى ومشب الربيع ...

فقلت له على الفور لأخفي ما اثارته كلماته في نفسي من سرور واضطراب :

ـ ولكن قل لي .. هل المحصول على ما يرام ؟

ـ انه مدهش ! .. ان هؤلاء الفلاحين قوم ممتازون في كل مكان ، وكلما ازددنا معرفة بهم تضاعف حبنا لهم ..

ـ آه ، نعم .. فقبل وصولك بلحظة قصيرة ، كنت ارقب العمل من المكان الذي كنت جالسة فيه ، فادركت مدى ما يبذلونه من جهد في الوقت الذي كنت انعم فيه بقدر كبير من الراحة و ..

فقاطعني قائلا ، وهو يلقي على نظرة مداعبة :

ـ لا تلعبي بهذه المشاعر يا كاتيا .. فعملهم هذا شيء مقدس ، وليحفظك الله من الادعاء في مثل هذه الامور !

ـ ومن اجل هذا فانني لا اقول ذلك الا لك وحدك ..

ـ اعرف ذلك .. حسنا ! واين الكرز ؟

***

كانت اشجار الكرز محاطة بسور له باب مغلق .. ولم يكن هناك بستاني واحد ، اذ ان سيرج كان قد ارسلهم جميعا للعمل . وجرت سونيا لتحضر المفتاح ، ولكن سيرج لم ينتظر عودتها ، وتسلق السور من احد اركانه بعد ان تعلق ببعض الشباك ، وقفز الى الناحية الاخرى .. وقال لي من هناك :

ـ هل لك ان تعطيني الطبق ؟

ـ كلا .. اريد ان اجمع الكرز بنفسي ، وسأذهب لاحضر المفتاح

لان سونيا لم تجده بلا شك ..

ولكنني ، في نفس الوقت ، تملكتني نزوة بأن افاجئه لارى ماذا كان يعمل هناك ، وماذا كان ينظر اليه ، وماذا كانت هيـــاته .. وباختصار : لأراه في الوقت الذي يعتقد فيه أن أحدا لا يراه .. أو لعل ذلك يرجع ــ لكل بساطه ــ الى انني كنت اريد الا اضيع في تلك اللحظة دقيقة واحدة من متعة النظر اليه .. فمشيت فوق الشوك على اطراف أصابعي ودرت حول السور ، ثم ذهبت الى الناحية الاخرى حيث السور اقل ارتفـــاعا ، ووقفت فوق وعاء مقلوب بحيث أصبح صدري في مستوى الســـور ، وانحنيت الى الداخل ابحث بعيني لانظر ما يشمله هذا المكان ..

كانت أشجار الكرز القديمة منحنية للغاية ، وتتدلى منها عناقيد من الكرز المسود اللذيذ .. فاخفيت راسي تحت الشباك ، ولمحت سيرج بين اغصان كثيفة ملتوية في كرزة عجوز .. ولا شك في انه كان يعتقد انني رحلت ، وان أحدا كان لا يراه ..

***

كان سيرج جالسا على حطام كرزة عجوز حاسر الراس ، وقـــد اغمض عينيه ، وراح يداعب باهمال بين أصابعه قطعة صغيرة من صمغ الكرز .. وفجأة ، فتح عينيه وتمتم يقول شيئا وهو يبتسم ، وكانت ابتسامته وكلماته التي تمتم بها لا تشبه الا قليلا مما كنت اعرفه عنه ، حتى انني خجلت لتجســي عليه . وقد بدا لي ان ما همس به كان هذه الكلمات : « كاتيا .. هذا غير ممكن ! » ثم كرر هامســا في مزيد من الحنان : « عزيزتي كاتيا ! » .. ولكني في هذه المرة سمعت هاتين الكلمتين في وضوح تام .. فخفق قلبي في عنف ، وشعرت بموجة من المرح تغمر نفسي ، واخذت الى حد كبير ... حتى انني اضطررت الى التشبث بالسور لامنع نفسي من السقوط ، وحتى لا ينفضح امري !

وسمع سيرج حركتي ، فالتفت وراءه في شيء من الفزع .. ثم

غض بصره فجاة وقد احمرت وجنتاه كأنه طفل صغير ، وأراد أن يقول لي شيئا فلم يستطع ، وازداد احمرار وجهه .. ومع ذلك ، فقد ابتسم وهو ينظر الى .. فابتسمت له كذلك ، وقد لاحظت ان ملامحه كانت تنطق بالسعادة . كلا ، كلا .. ان سيرج لم يعد اذن ذلك العم العجوز الذي كان يغرقني في المداعبة والتوجيه ، وانما كنت أرى أمام عيني رجلا في نفس مستواي .. رجلا يحبني ويخشاني ، وكنت انا نفسي اخشاه واحبه .. !

وانقضت لحظات ، لم يقل احدنا خلالها شيئا للآخر ، ولم يقنع بان يبادله النظرات .. وفجاة ، قطب سيرج حاجبيه .. وانطفأ لهيب نظرته في نفس اللحظة التي تلاشت فيها ابتسامته . وسرعان ما عاد الى موقفه الابوى البارد حيالي ، كما لو كنا قد فعلنا شيئا منكرا ، وكمـــا لو كان قد ثاب الى رشده ونصحني بأن احـــذو حذوه !

وقال لي :

ـ انزلي من هنا حتى لا تصابي بأذى .. وصففي شعرك ، ثم انظري ماذا تشمين !

فقلت في نفسي وقد تملكني الغضب : « ترى لمـــاذا يخفي شعوره هكذا ؟ ولمـــاذا يريد ان يؤلمني ؟ »

وتملكتني في تلك اللحظة رغبة عارمة في أن اضاعف اضطرابه ، وأن اجرب قوة اغرائي عليه ، فعلقت بيدي في غصن شجرة مجاورة ثم قفزت الى الناحية الاخرى من السور وانا أقول له :

ـ كلا .. أريد ان اقطف الكرز بنفسي ..

وقبل ان يتمكن من معاونتي ، قفزت الى الارض بين اشجار الكرز .. فاحمر وجهه من جديد ، وصاح قائلا وهو يحـــاول ان يخفي اضطرابه تحت ستار من الغضب :

ـ أية حماقة هذه التي ترتكبينها هنا !..

ـ كان من الممكن ان يصـــيبك اذى .. والآن ، اريني كيف

تستطيعين الخروج من هذا المكان ؟

وبلغ اضطراب سيرج فى تلك اللحظة أضعاف ما اعتراه من قبل ، ولكن اضطرابه هذا صار لا يفرحنى ، بل يثير خوفى .. ذلك لاننى كنت بدورى مضطربة تعلو وجنتى حمرة الخجل .. فابتعدت عنه وانا لا اعرف ماذا اقول ، وأخذت احمع الكرز ولا ادرى أين اضعه. ورحت الوم نفسي واعض بنان الندم ، وقد استبد بى الخوف .. وكان يبدو لى فى تلك اللحظة اننى بتصرفى هذا قد فقدت مكانتى فى قلبه الى الابد !

ولبثنا هكذا نحن الاثنين بلا حديث ، وكان الصمت ثقيلا علينا.. واقبلت سونيا تجرى وبيدها مفتاح الباب ، فأخرجنا ظهورها المفاجىء من هذا الموقف المرتبك . ومع ذلك ، فقد استمر بيننا الصمت .. وكل منا يفضل ان يتحدث الى شقيقتى ..

وهدأت نفسا لما عدنا الى ماشا من جديد ، واقسمت لنا هذه انها لم تنم ، وانها سمعت كل شىء . وحاول سيرج مرة اخرى ان يعود الى موقفه كأب يحمينى ، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل ولم تستطع ان تخدعنى . وكان هناك حديث معين كان قد جرى بيننا منذ يومين ، وكان لا يزال حيا فى ذاكرتى ..

كانت ماشا قد تطوعت برأى من عندها ، فقالت فى حد واهتمام :

ــ ان الرجل يقع فى شباك الحب بسهولة اكثر من المرأة ، ومن اليسير عليه أن يعبر لها عن حبه ..

وصمتت ماشا لحظة ثم لخصت رأيها قائلة : « يستطيع الرجل أن يقول انه يحب ، ولكن المرأة لا تستطيع أن تفعل ذلك »

فرد عليها سيرج قائلا :

ــ يبدو لى ان الرجل لا يستطيع ، ولا ينبغى له ان يقول انه يحب ..

فسألته قائلة :

ــ لماذا ؟

— لان ذلك سيكون كذبا على الدوام .. وبعد ، فما معنى ان يكتشف الرجل انه يحب ؟ أهو حدوث شيء غير عادي لمجرد أن ننطق بهذه الكلمة ؟ شيء غير عادي او ظاهرة أيا كانت تحدث هكذا فجاة ودفعة واحدة ؟ يبدو لي أن هؤلاء الناس الذين يقولون لك بطريقة رسمية : « أحبك » .. اما انهم يخدعون انفسهم ، أو ما هو اسوأ من ذلك : يخدمون الآخرين ..!

فقالت ماشا تسأله :

— وهكذا ، حسب رأيك ، تعرف المرأة ان الرجل يحبها حينما لا يقول لها انه يحبها !

— هذا شيء لا اعرفه ، ولكل رجل طريقته في الكلام .. ولكن ثمة مشاعر تفرض فهمها بنفسها .. فحينما أقرأ رواية ما ، فانني احاول دائما أن اتصور منظر اللازم « كريلسكي » أو « الفريد » وهما يقولان : « احبك يا الينورا .. » ويظنان انه سيحدث فجاة شيء غريب ، في حين لا يحدث شيء على الاطلاق لا في نفسها ولا في نفسه .. فوجهاهما ، ونظراتهما ، وكل شيء فيهما يظل دائما كما هو ! ..

وفهمت من خلال هذا المزاح ان وراءه معنى جديا ، وان هذا المعنى قد يتعلق بي .. وكانت ماشا لا تسمح — بسهولة — بأن يطول الحديث عن أبطال الروايات ، فصاحت في سيرج قائلة :

— انك تلقى دائما بآراء تعارض بها آراء الآخرين ، هيا .. وكن صريحا : الم تقل انت نفسك أبدا لامرأة انك تحبها ؟

فأجابها سيرج قائلا وهو يضحك :

— انني لم اقل ذلك ابدا ، ولم اثن ركبتي أمام احد قط .. ولن اقوله لاحد ..

***

تذكرت حينئذ هذا الحديث الذي جرى بيننا منذ يومين ،فقلت في نفسي : « نعم .. انه ليس بحاجة الى ان يقول لي انه يحبني ،

فهو يحبني ، وانا أعرف ذلك ، ولن تستطيع كل الجهود التي يبذلها ليبدو امامي بمظهر عدم الاكتراث ، أن تنتزع من نفسي أعتقادي الراسخ بأنه يحبني ..

ولم يتحدث الي سيرج طيلة هذه السهرة الا قليلا جدا ، ولكنني كنت اشعر بحبه في كل كلمة من كلماته ، وكل حركة من حركاته ، وكل نظرة من نظراته ، وكنت لا اشك ابدا في ذلك .. والشيء الوحيد الذي كان يغيظني منه ويبعث الحزن في نفسي انه كان لا يزال يحرص على ان يخفي حبه عني ويدعي البرود ، بينما كان كل شيء قد اصبح واضحا تماما بحيث كنا نستطيع في كثير من السهولة والبساطة ان نكون سعداء أكثر مما يتسنى لغيرنا من الناس . ولكنني من ناحية اخرى كنت اتعذب ، وكانني ارتكبت جرما ، لانني تمزقت فوق سور البستان ولحقت به بين اشجار الكرز .. وكان يبدو لي وقتئذ انه كف عن تقديره لي ، واصبح يشعر نحوي بشيء من الجفاء

وجلست الى البيانو بعد تناول الشاي ، فلحق بي سيرج في الصالون وقال :

ــ اعزفي لنا شيئا يا كاتيا ..

فحدقت في عينيه فجأة ، وقلت له :

ــ هل انت غاضب مني يا سيرج ؟

ــ لماذا ؟ ..

فأجبته وقد اندفع الدم غزيرا الى وجنتي من شدة الخجل :

ــ لانني لم اطعك بعد ظهر اليوم ..

ففهم ما كان يجول بخاطري ، وهز رأسه وابتسم .. وادركت من ابتسامته انه كان يريد أن يعنفني قليلا ، ولكنه لم يعد يستطيع أن يفعل ذلك ..

وقلت له وانا اتخذ مكاني امام البيانو :

ــ لقد انتهينا من هذا الموضوع . واصبحنا مرة اخرى على وفاق .. اليس كذلك ؟

ــ اعتقد ذلك ..

ولم يكن في هذا الصالون الكبير ذي السقف المرتفع سوى شمعتين فوق البيانو .. اما بقية الغرفة فكانت غارقة في شبه ظلام .. ومن خلال النوافذ المفتوحة ، كنا نتأمل مناظر ليالي الصيف المقمرة ، وكاد يسود المكان سكون شامل لم يكن يعكر صفوه بين حين وآخر الا وقع أقدام ماشا في الصالون ، وصوت سنابك جواد سيرج المشدود الى النافذة ، وهو يضرب الارض ويحطم بعض الاعشاب ..

***

وجلس سيرج خلفي بحيث لم اكن استطيع ان اراه ، ولكن نظراته وحركاته التي لم يكن في استطاعتي ان اميزها ، كانت تنفذ الى أعماق نفسي فتحدث دويا في قلبي ..

وجرت اناملي على البيانو تعزف المقطوعة التي كان قد احضرها لي ، فحفظتها امامه ومن اجله .. وكنت لا افكر ابدا فيما كنت اعزفه ، ولكن كان يبدو لي انني اجيد عزفه ، وان هذا العزف يعجبه .. وكنت أقاسمه المتعة التي كان يشعر بها ، وادرك دون ان اراه ان نظراته من مكانه كانت مثبتة علي ..

وبينما كانت اناملي تمس مفاتيح البيانو ــ دون أن اعي ماكنت أفعله ــ بدرت مني حركة لا ارادية .. فقد نظرت اليه ، وكان راسه ظاهرا بوضوح في ظلام الليل ..

كان سيرج جالسا يتأملني بامعان ، وقد أسند جبهته الى راحة يده ولمعت عيناه ببريق شديد ، فابتسمت وانا افاجئه بالتطلع اليه .. وتوقفت عن العزف .. فابتسم هو الآخر ، ومال براسه على « النوتة » بصورة فهمت منها انه يلومني ويطلب مني ان اتابع العزف ..

وحينما انتهيت من العزف ، كان القمر في كبد السماء ، وأخذ ضوؤه الفضي يتسلل من خلال النوافذ ، ويمتزج بضوء الشمعتين الخافت ليعكس على « الارضية » الخشبية المصقولة ..

وقالت ماشا :

ـ انك تصرفت تصرفا سيئا وتوقفت عن العزف فى اجمل موضع ، وارى انك لم تحسنى العزف !

فاحتج سيرج قائلا :

ـ بل على العكس .. انها لم تنجح يوما فى العزف كما نجحت اليوم ..

ونهض من مقعده ، واخذ يذرع ارض الصالون المعتم والردهة جيئه وذهابا ، وهو ينظر الى مبتسما .. فكنت ابادله الابتسام .. وكنت ارغب فى الضحك ـ دون اى سبب ـ لفرط سعادتى بما حدث فى ذلك اليوم وفى تلك اللحظة التى كنا فيها ..

***

وبينما كان الباب يحجب عنى سيرج لحظة ، قفزت الى رقبة ماشا واخذت اقبلها فى موضعى المفضل على رقبتها السمينةواسفل ذقنها .. وحين ظهر ثانية ، اعدت لوجهى مظهره الجاد ، وكتمت ضحكة كادت ان تفلت من بين شفتى !

وسألته ماشا قائلة :

ـ ماذا جرى لها اليوم ؟

ولم يجب سيرج ، بل اكتفى بان تندر على .. وكان يعرف جيدا ماذا كان يحدث لى !

ووقف سيرج امام باب الشرفة التى تطل على الحديقة ثم قال:

ـ هيا .. احضرا الى هنا لتشاهدا جمال هذه الليلة !

فلحقنا به هناك .. وكانت حقا ليلة لم ار مثلها بعد ذلك .

كان القمر بدرا يسطع خلفنا من فوق البيت .. وكان سقف البيت واعمده الشرفة تعكس ظلالا قصيرة تنحدر بميل الى ممر الحديقه المفروش بالرمل ، وعلى حوض العشب ذى الشكل البيضاوى .. وكانت كل نباتات الحديقة تتلألأ فى الضوء ، وقد غطتها طبقه فضية من الندى بفعل ضوء القمر .. وكان هناك

طريق عريض تحف به الازهار من الجانبين ، وتقطعه ظلال اشجار الورد التي تسندها العصى ..

وكان هذا الطريق المضيء النصر يمتد تحت الضبـــاب ، وكان يتلالأ فيه حصى مدبب .. وكان سقف حـــوض البرتقال المغلق يسطع من وراء اعالي الاشجار ، وكان الضباب يتصـاعد من خلف ربوة الحديقة وهو يزداد كثافة لحظة بعد اخرى .. واصبحت الازهار رطبة بتأثير الندى ، بحيث اصبح من المستطاع أن يميزها المرء الواحدة عن الاخرى . وكان الضوء يمتزج بالظل في ممـرات الحديقة بحيث أن الاشجار والممرات كانت تبدو كأنها مبان شفافة تهتز وتتموج من جراء ذبذبة حتون !

وفي ظل البيت ناحية اليمين ، كان كل شيء معتما لايمكن تمييزه، ويكاد يثير الرعب في النفوس .. ولكن قمم اشجار البلوط ذات الشكل العجيب كانت تلمع فيما وراء ذلك ، مثـــيرة في النفس شعورا غريبا وهي تنثر الى جوار البيت وفوقه هالة من الضـــوء الواضح ، بدلا من أن تتلاشى في اجواز هـــذا الفضاء ذي الزرقة المعتمة ..

وقلت فجأة :

ــ هيا بنا نتنزه ..

فوافقت ماشا .. ولكنها اضافت قائلة ان على أن انتعل حذاء خشبيا حتى لا انزلق على الارض الرطبة

فقلت لها :

ــ ليس هذا ضروريا .. فسيعطيني سيرج ذراعه ..

قلت لها ذلك ، وكأنما سيمنعني ذراع سيرج من ان تبتــل قدماي ! ولكن مثل هذا العمل الجنوني كان يعتبر في تلك اللحظة امرا مقبولا لا يثير الدهشة في نفس كل منا نحن الثلاثة

ولم يكن سيرج قداعطاني ذراعه من قبل ــ وانا اسير معــه ــ وهاأنذا الان قد اخذته بنفسي ، فلم يبـد عليه أي أثر للدهشة .

ونزلنا نحن الثلاثة سلم الشرفة المؤدى الى الحديقة .. وكان كل هذا العالم ، وهذه السماء ، وهذه الحديقة ، وهـذا الهواء الذى كنا نستنشقه .. كل هـــذا لم يعـد يبدو فى نظرى كما عرفته من قبل ! ..

وحينما نظرت امامى فى ممر الحديقة الذى كنا نهم بالسير فيه ، دار بخاطرى اننا لن نستطيع ان نذهب ابعد من ذلك ، وان العالم ينتهى هنا ، وان كل شىء من حولى يجب ان يظل ثابتا على جموده دون تغيير فى جماله الحالى

ومع ذلك ، فكلما تقدمنا فى السير ، كان هذا الجدار المسحور المصنوع من الجمال الخالص يتراجع أمامنا ليفسح لنا الطريق .. وكنت حينئذ اجد نفسى مرة ثانية وسط اشياء مألوفة : الحديقة ، والممرات ، والاشجار ، وأوراقها الجافة .. وكنا نعبـــر ـ اثناء سيرنا فى هذه الممرات ـ دوائر مضيئة تتلوها أخرى مظلمة . وكانت أوراق الاشجار الجافة تتهشم تحت اقدامنا ، واغصان الاشجار الحنون ترتطم بوجهى ..

***

وكان سيرج يمشى الى جوارى بخطوات بطيئـة منتظمة ـ فى تحفظ وحذر ـ تاركا ذراعى يستند الى ذراعه .. وكان القمر يطل علينا من السماء ، ويضىء وجوهنا من خلال اغصان الشجر ..

وتأملت سيرج لحظة ، ولم يكن هناك ولا شجرة واحدة فى ذلك الجزء من الممر الذى كنا نجتازه فى تلك اللحظة ، فبدا لى وجهـه واضحا فى ضوء القمر .. كان جميلا جدا ، وتنطق ملامحه بفيض من السعادة ..

وكان يقول لى : « هل انت خائفة ؟ »

فكان صدى هذه الكلمات يتـــردد فى نفسى ، وكأنه يقول لى : « احبك يا صغيرتى العزيزة ! احبك ! احبك ! » ..

وكانت نظرته تؤكد حبه لى .. وكذلك ذراعه ، وضوء القمر ،

والظل ، والهواء ، وكل شيء من حولنا ..

وطفنا هكذا بكل ارجاء الحديقة ، وماشا تســـير الى جوارنا بخطوات صغيرة متوثبة ، وقد بدا انها تتنفس بجهد لما تلاقيه من عناء وتعب ، وقالت لنا آخر الامر :

ــ يجب الان ان نعود !

وكنت اتألم كثيرا من أجلها .. اتألم كثيرا من اجل هذه المخلوقة المسكينة .. وقلت في نفسي : « لماذا لايكون شعور ماشا كشعورنا؟ ولماذا لايكون المرء شابا وسعيدا على الدوام ؟ .. لشد ماينبثق الشباب من خلال ليلتنا هذه !

وعدنا الى البيت ، ولكن سيرج أطال البقاء معي بعـــد ذلك ، ونسيت ماشا ان تذكرنا بأن الوقت كان متأخرا . ودار الحديث بيننا عن امور تافهة ، ونحن نجلس جنبا الى جنب ، فلم نشعـــر بأنفسنا حتى كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا !

ورحل سيرج مع مطلع الفجر ، بعد ان استاذن منا كما كان يفعل من قبل ، ولكنني كنت أعرف منذ ذلك اليوم انه صار ملكا لي دون شك ، وانني لن أستطيع ان ابتعد عنه ..

***

وحينما أيقنت انني كنت احبه ، قصصت كل شيء على ماشا .. سرها ذلك وتأثرت به ، ولكن هذه المرأة المسكينة لم تستطع أن تنام طيلة هذه الليلة .. اما انا ، فقد لبثت فترة طويلة أتمشى بعد ذلك في الشرفة ، وأطوف بأرجاء الحديقة ، وانا احاول ان اتذكر كل كلمة وكل شيء حدث بيننا .. ومرة اخرى ، أخذت أجوب ممرات الحديقة التي شاهدت نزهتنا الليلة معا

ولم يزر النوم جفني في تلك الليلة .. ولاول مرة في حيــــاتي شاهدت شروق الشمس وعرفت ما هو الفجر ، ورحت أســـائل نفسي : لماذا لايقول لي ببســـاطة انه يحبني ، ولماذا يختلق الصعوبات، ولماذا يزعم انه عجوز بينما كل شيء بسيط جدا وجميل للغـــاية ؟

لماذا تضيع هكذا وقتنا ثمينا قد لايعود ابدا ؟ فليقل اذن انه يحبنى .. ليقل ذلك فى الفاظ صريحة ، وليأخذ يدى فى يده ، وليميل براسه على ، ويقول : أحبك ! .. ليخفض عينيه اذن ، ويحمر وجهه امامى من الخجل ، وسأقول له حينئذ كل شيء .. أو ربما من الافضل الا اقول له شيئا ، بل أحتضنه بين ذراعى وأجهش بالبكاء .. ولكن ، ترى ماذا يحدث لو اننى كنت مخطئة وكان لا يحبنى ؟

جالت هذه الفكرة فجأة بخاطرى ، فتملكنى الذعر لهذا الشعور .. ويعلم الله الى اين كان يمكن أن يؤدى بى هذا الشعور ... والواقع أن صدى خجلنا واضطرابنا حين فررت ولحقت به بين أشجار الكرز ، كان ثقيلا على نفسى ويقبض قلبى !

وامتلأت عيناى بالدموع واخذت أصلى .. وقد راودتنى فى تلك اللحظة فكرة غريبة لعابة ، أحيت الامل فى نفسى ، واشاعت فى قلبى الهدوء .. فقد قررت ان ابدا فترة من التقشف والزهد ، وان أختار يوم عيد ميلادى لاصبح خطيبة لسيرج

ولم اكن ادرى كيف ولماذا كان يمكن ان يتحقق ذلك .. ولكننى اعتقدت فى نفسى تلك اللحظة أن الامور ستسير على هذا النحو ..

ولما عدت الى غرفتى كان النهار قد اشرق تماما ، واستيقظ كل من فى البيت ..



الفصل الرابع

قبيل الزواج

أحلام ...

كنا في وقت صيام المسيحيين الارثوذكس .. ولهذا لم يفاجأ احد بالبيت بمشروع الزهد والتقشف الذى قررت تنفيذه ..

ولم يأت سيرج ليرانا طيلة اسبوع باكمله .. ولم يدهشنى ذلك منه ، ولم يغضبنى أو يقلقنى ، لفرط سرورى من انه لم يحضر .. اذ كنت لا انتظره الا فى يوم عيد ميلادى ..

وفى كل يوم من ايام هذا الاسبوع ، كنت استيقظ مبكرة فى اللحظة التى يذهب فيها الفلاحون لاستئناف اعمال اليوم .. ثم اتنزه وحدى فى ارجاء الحديقة وانا افكر فى الماضى ، وفيما كان يجب على ان اعمل حتى اجد نفسى راضية مسرورة فى المساء بعد قضاء يوم لم ارتكب فيه الخطايا ..

وخلال النهار ، كانت الجيوش تشد الى العربة لانطلق بها مع ماشا وخادمة اخرى الى الكنيسة التى تقع على مسيرة ثلاثة فراسخ من بيتنا . وفى كلّ مرة كنت ادخل فيها الكنيسة ، كنت اتذكر ان المرء وهو بداخلها يدعو الله من اجل كل هؤلاء الذين يدخلونها وقلوبهم عامرة بخشية الله .. وكنت شديدة الحرص على ان ارتفع الى مستوى هذه الفكرة ، خاصة فى اللحظة التى كنت ارتقى فيها سلم الكنيسة الذى يكسوه العشب ، وهى اللحظة التى لم يكن يوجد بالكنيسة خلالها الا نحو عشرة من الفلاحين والزهاد الذين جاءوا ــ مثلى ــ يتاهبون لعادة فى فترة الصوم والتقشف هذه.. كما كنت اعنى كل العناية بان ارد على تحيتهم فى تواضع وشمم.. وكنت اقترب بنفسى من الدرج الذى تودع فيه الشموع ــ وكان ذلك يعتبر فى نظرى عملا مجيدا ــ فيناولنى جندى عجوز كان يعمل

خدما لكنيسة بعض الشموع ، فاذهب بعد ذلك واضعها فى خشوع امام الصور المقدسة ..

***

وحينما كنت اقترب من باب المكان المقدس ، كنت استطيع أن المح « المفرش » ـ الذى كانت والدتى قد صنعته بيديها ـ موضوعا فوق المذبح وعليه صور دينية ، واخرى للملائكة تحف بها النجوم ، وحمامة حولها هالة من الذهب ..

وكان هذا « المفرش » يبدو لى كبيرا جدا ايام طفولتى ، كماكانت هذه الحمامة تستلفت نظرى بوجه خاص .. وكنت المح فيما وراء المكان الذى ترتل فيه التراتيل ذلك الحوض الذى طالما امسكت فيه باطفال الفلاحين فى مزرعتنا ليعمدهم القسيس ، والذى كنت انا نفسى قد عمدت فيه . وكان القسيس العجوز يبدو مهيبا مؤثرا ، وقد ارتدى عباءته المصنوعة من قماش كان يوما يغطى نعش والدى .. ثم يأخذ فى ترتيل الطقوس بنفس الصوت الذى كان يرتل به الطقوس فى بيتنا وانا طفلة صغيرة ، واثناء تعميد شقيقتى سونيا ، وخلال اقامة الشعائر الجنائزية على جثمان والدى ثم والدتى ..

وكنت أسمع صوتا متكسرا ومألوفا لدى يتصاعد من بين المرتلين ، وكان ذلك صوت القسيس الذى يشرف على انشاد الترتيل .. وكنت ارى فى كل مرة عجوزا محدودبة الظهر كانت تحرص على حضور كل الطقوس ، وقد استندت الى الجدار وامسكت بين يديها المضمومتين بمنديل باهت اللون .. وراحت تتأمل احدى الصور الدينية بعينين تفيضان بالدموع ، وتتمتم بصلوات غامضة كانت تنساب متتابعة من فمها الخالى من الاسنان ..

ولم يكن الفصول وحده ـ او مجرد الذكريات ـ هى التى تقرب الى نفسى كل هذه الاشياء وهذه المخلوقات ، بل كانت هذه جميعا تبدو فى نظرى كبيرة مقدسة حافلة بالمعانى العميقة ..

وكنت أعير أذنا واعيــة لكل كلمة من العظات والصلوات التى

استمع اليها ، محاولة جهد طاقتي أن اجمل شعوري يتفق ومغزى هذه الكلمات .. واطلب الى الله أن ينير بصيرتي حينما كنت لاافهم بعض معانيها ، او ابدل مالم أكن اسمعه منها جيـدا بصلوات من عندي ..

وفي اللحظة التي كانت تتلى فيها صلوات الغفران ، كانت ذكريات ماضي تطفو في نفسي .. وكان ماضي طفولتي البريئة يبدو في نظرى حالك الســواد بالقياس الى حاله الصفاء التي كانت تنعم بها نفسى في تلك اللحظة .. فكنت ابكي على نفسي ، ولكني كنت اشعر في نفس الوقت بان ذنوبي جميعها قد غفرت لي .. وحتى لو انه كان لا يزال هناك من الذنوب ما اندم عليه ، فان ندمي عليها كان خليقا بان يكون اكثر لطفا واخف ايلاما ..

وعند انتهاء هذه الطقوس .. وفي اللحظة التي كان ينطق فيها القسيس بهـذه الكلمات : « لتشملكم جميعا بركة الرب » ، كنت اشعر براحة نفسية ، بل وجسمية ، تسرى في كياني .. كما لوكان هناك تيار من النور والدفء قد غمر قلبي فجأة ..

وكان القسيس يقترب مني في بعض الاحيان ـ قبل رحيلي ـ ويسألني قائلا :

ـ متى احضر الى منزلكن لاقامة بعض الطقوس ؟

فكنت اقول له في انفعال :

ـ اشكرك يا سيدى القسيس على ما تريد ان تفعله من أجلي ، وساحضر الى هنا بنفسي في العربة او سيرا على الاقدام ..

ـ آه ! .. انك تريدين بهـذا أن تتكبدى مزيدا من المشـــقة والجهد ..

فكنت لا اعرف بماذا أجيبه مخافة ان اقع في خطيئة الغرور ..

وفي الايام التي كانت ماشا فيها لا ترافقني ، كنت أصرف العربة من أمام الكنيسة ، واعود وحدى الى البيت سـيرا على الاقدام ، واحيى في تواضع عميق كل من كان يقابلني في طريقي ، وانا انحنى

الفرص لامد الى الآخرين يد المساعدة واسدى اليهم النصح ، واضحى من اجلهم .. فاشارك فى رفع عربة غاصت عجلاتها فى الوحل ، او اهدىء طفلا يصرخ عجزت امه عن تهدئته .. وكنت اخوض فى بعض الاحيان فى الوحل لافسح الطريق للآخرين ..

***

وذات مساء ، سمعت وكيل اعمالنا يقول لماشا :

ـ ان هناك فلاحا يدعى سيمون جاء يطلب منى بعض الخشب ليصنع منه نعشا لابنه ، ورويلا واحدا يقيم لها به طقوس الجنازة فأجبته الى ما طلب ..

فسألته قائلة :

ـ وهل هو فى فقر شديد ؟

ـ انه فقير للغاية يا آنسة ، ويعيش على الكفاف ..

فانقبض قلبى على الفور ، ولكننى كنت مسرورة فى نفس الوقت لانى علمت ذلك .. فافهمت ماشا اننى ذاهبة للنزهة ، وصعدت الى غرفتى فأخذت كل ما كان فيها من مال ـ ولم يكن كثيرا ولكنه كل ما املك ـ ثم رسمت علامة الصليب ، ورحلت وحدى الى القرية ميممة شطر كوخ سيمون .. وكان فى طرف القرية ..

***

لم يكن قد رآنى احد حينما اقتربت من نافذة الكوخ .. فوضعت عليها ما معى من مال ، ثم طرقت مصراعها فى رفق .. فسمعت فى تلك اللحظة صريرا صادرا من باب الكوخ ، وبرز منه شخص ناداني ، ولكننى كنت ارتعد من الخسوف وكانى قد ارتكبت جرما فهربت عائدة الى البيت !

وسألتنى ماشا اين كنت وماذا كنت أعمل ؟ .. ولكننى لم أفهم حتى ما كانت تقول ، ولم انطق بكلمة واحدة .. وفى تلك اللحظة ، كان كل شىء يبدو فى نظرى تافها ولا طائل تحته ..

واغلقت على نفسى باب غرفتى ، واخذت اذرع ارضها طولا وعرضا ،

وانا اشعر بأننى لا أريد ان افعل شيئا او افكر فى شىء . وكنت لا استطيع ان اتبين بوضوح ما يعتمل فى اعماق نفسى ، وانا اتصور مدى سرور هذه الاسرة المعدمة ، والكلمات التى نطق بها افرادها حيال ذلك الذى وضع النقود على قاعدة النافذة .. واصبح يحز فى نفسى الآن اننى لم اعطهم هذا المال بنفسى .. وكنت اتساءل عما عسى ان يقوله سيرج لو انه علم بما فعلت ، ولكن كان يملؤنى سرورا انه لن يعرفه ابدا !

لقد كانت تغمرنى فرحه عظيمة ، ويملؤنى اعتقاد بأننى ــ انا والناس جميعا ــ بشر غير كاملين .. وكنت انظر الى نفسى والى الاخرين فى كثير من العطف الى حد ان فكرة الموت ذاتها بدت لى كرؤيا من السعادة

اننى كنت ابتسم ، واصلى ، وابكى .. واحببت فجأة البشر جميعا فى تلك اللحظة ، كما احببت نفسى بعنف غريب .. ومددت يدى الى الانجيل وقرأت منه فقرات .. فاذا بكل ما كنت اقرأه منه يصبح اكثر وضوحا وأيسر فهما .. واذا بقصة تلك الحيـــاة الالهيه تصبح اكثر بساطة بالنسبة الى واشـــد تأثيرا فى نفسى .. واذا بالمشاعر والافكار التى كنت اكتشفها اثناء هذه القراءه تزداد رهبة وعمقا فى نظرى .. ولكن ، كم بدا لى كل شىء واضحا وسهلا ــ كذلك ــ حينما اغلقت الكتاب المقدس ، ونظرت من جديد الى الحياة التى كنت ملقاة فيها والتى كنت اتأملها ..

وبدا لى من المحال الا اعيش معيشة طيبة ، وأن من اليسير أن احب الناس جميعا ، وان يحبنى كل فرد منهم ، خاصه وانهم كانوا جميعا على قدر من الرقة بازائى .. حتى سونيا التى كنت أتابع دروسى معها ، اصبحت مختلفه تماما ، وحريصة على أن تفهم كل شىء ، وشغوفه بارضائى ، وبالا تفعل ما من شأنه أن يغضبنى . وكان الاخرون يعاملوننى نفس المعاملة التى كنت اعاملهم بها ..

***

وانتقلت بعدئذ الى أعدائى لالتمس منهم الصــفح قبل اليوم

العظيم يوم عيد ميلادى ، فتذكرت فقط آنسة من جيراننا كنت قد سخرت منها منذ عام أمام بعض الضيوف فكفت عن زيارتى .. فكتبت اليها خطابا اعترف فيه بخطئى وأرجوها أن تصفح عنى . وردت على جارتى تقول لى انها قد صفحت عنى ، وانها بدورها تطلب منى الصفح .. فطفرت من عينى دموع الفرح وانا اقرأ تلك السطور البسيطة المملوءة بالمشاعر العميقة المؤثرة ..

ونكت خادمى ايضا حينما طلبت منها الصفح .. فتساءلت حينئذ عن السر فى انهم جميعا كانوا على طيبة كبيرة معى ، وفى انى كنت استحق منهم كل هذا العطف ؟..

وحينئذ ، تذكرت سيرجلا اراديا فعكرت فيه ، وكنت لا استطيع ان افعل غير ذلك .. ولم اعتبر ان هذا الشرود من جانبى يعد خطيئة .. والواقع اننى لم افكر فيه على الاطلاق بنفس الطريقة التى فكرت فيه بها فى تلك الليلة التى اكتشفت فيها لاول مرة انى احبه .. وانما كنت افكر فيه تماما كما كنت افكر فى نفسى ، واشركه على الرغم منى فى كل ما يتعلق بمستقبلى ، وكان تأثيره المسيطر على نفسى ينمحى من مخيلتى تدريجيا .. اذ اصبحت اشعر اليوم بانى مساوية له ، وكنت افهمه حق الفهم وانا فى قمة السماء المثالى الذى كنت أحلق فوقه ، وصار مفهوما ـ بالنسبة الى ـ كل ماكان يبدو لى غريبا فيه .. وادركت اليوم فقط معنى تلك الفكرة التى كان قد عبر لى عنها ، وهى ان السعادة فى ان يعيش المرء من اجل الاخرين ، واصبحت اقره تماما على هذا الرأى

وكان يبدو لى اننا سنتنعم معا بسعادة لا حد لها .. وكنت لا افكر فى سفر الى الخارج ، او بهرجة ، او مجتمع راق ، بل حياة هادئة : حياة اسرة فى الريف ، وانكار دائم لارادتى الذاتية ، وحب متبادل مستمر ، واعتراف دائم بجميل العناية الالهية ، وشكر مطلق لله على معونته الحلوة

***

وفى اليوم الموعود ، يوم عيد ميلادى ، قمت بالطقوس التى كنت

ابوى ان اقوم بها فيه وقد طفح قلبى بالسعادة ، حتى أننى عــدت من الكنيسة يومئذ وفى نفسى الكثير من الهواجس .. فكنت أشعر بالخوف من الحياة ، ومن كل احساس ، ومن كل ما يمكن ان يعكر صفو هذه السعادة ..

وما كدنا نـزل من العربة أمام درج الشرفة حتى سمعت جلبة عربة سيرج المعروفة ، وهو يمر من فوق « الكوبرى » وسرعان ما لحت سيرج نفسه ..

وتلقيت تهنئته ، ثم دلفنا معا الى الصالون .. ولم اشعر قط منذ أن عرفته بمثل الهدوء الذى كنت أشـــعر الان به وانا الى جواره ، كما لم اشعر ابدا باستقلال كهذا الذى شعرت به فى الصباح .. وكنت اشعر حينئذ باننى احمل فى نفسى عالما جديدا باسره ، ولم اكن اشعر وانا الى جواره بأدنى اضطراب . ومع ذلك ، فربما فهم ما كان يعتمل فى نفسى لانه ابدى نحوى عطفا واحتراما لا حد لهما .. وكنت قد اقتربت من البيانو ، ولكنه اغلقه ووضع مفتاحه فى جيبه ثم قال :

ــ لا تفسدى هذه الحالة النفسية التى اراك فيها الان ، فهناك موسيقى تتردد فى نفسك لا يدانيها اعذب الانغام فى هذا العالم !

وشعرت نحوه بالاعتراف بالجميل لكلامه هذا .. ولم يصافحنى كثيرا ــ فى نفس الوقت ــ انه فهم بسهولة ، وفى اتم وضوح ، كل ما كان ينبغى ان يظل سرا فى نفسى بالنسبة لكل الاخرين ..

وما أن نطق سيرج بهذه الكلمات ، حتى نظر الى ماشا .. ثم القى على نظرة سريعة كما لو كان يخشى أن يلاحظ على وجهى شيئا من الانفعال ، ولكن لم يبد على اثر للدهشة أو الاضطراب ، ولم اسأله حتى عما اذا كان غيابه سيكون لوقت طويل ..

***

لقد كنت اعرف انه سيقول لى هذا الكلام ، وكنت اعرف ايضا انه لن يسافر .. ولا اســـتطيع الان ان افسر كيف عرفت ذلك ،

ولكنه كان يبدو لي في هذا اليوم المشهود انني كنت اعرف كل
ـ كان وكل ما سيكون .. وكنت غارقة في حلم من تلك الاحلام
السعيدة التي يتاح فيها للمرء نوع من الرؤيا المشرقة ، تكشف
له عن المستقبل وتكشف له عن الماضي

واراد سيرج ان يرحل بعد الغداء مباشرة ، ولكن ماشا كانت قد ذهبت لتغفو قليلا .. فاضطر الى الانتظار حتى تستيقظ ليودعها ..

وكانت الشمس تغمر أرض الصالون فذهبنا الى الشرفة ، وما كدنا نجلس حتى بدأت ـ في هدوء تام ـ ذلك الحديث الذي كان يتوقف عليه مصير حبي .. بدأته في نفس اللحظة التي جلست فيها امامه وجها لوجه ، ولم ترد فيه كلمة واحدة اكثر مما كان ينبغي ان يقال ، ولم يتسرب اليه شيء كان يمكن ان يعوق ما كنت اريد ان اقوله .. ولست استطيع انا نفسي ان ادرك من اين جاءني هذا الهدوء ، وهذا الاصرار ، وهذه الدقة في التعبير .. بل كان يبدو لي انه لم اكن انا التي تتكلم ، وانما كان هناك شيء اخر مستقل تماما عن ارادتي هو الذي كان يدفعني الى الكلام ..

كان سيرج لا يزال جالسا أمامي ، فانتزع غصنا من احدى شجيرات الورد .. انتزعه فجاة بما فيه من أوراق . وحينما هممت بأن اتكلم ، ترك هذا الغصن جانبا وغطى وجهه بيده .. وهي حركة اما أن تدل على انه رجل هادىء كل الهدوء ، أو تدل على انه كان ـ على النقيض ـ يعاني اضطرابا بالغا ..

وبدأت حديثي بلهجة تشف نبراتها بالتصميم ، فقلت له :

ـ لماذا ترحل ؟

وتوقفت لحظة ، وانا انظر مباشرة في عينيه ..

فلم يجب على سؤالي في الحال ، وتمتم قائلا ـ بعد لحظة ـ وقد غض من بصره :

ـ ان لدي اعمالا ..

وفهمت انه كان من العسير عليه ان يكذب فى الرد على سؤال وجهته اليه بمثل هذه الصراحة ، وقلت له :

ـ انصت الى .. انك تعرف ما لهـذا اليوم من قيمة لدى ، وهو من مختلف الوجوه يوم عظيم .. واذا ما سـألتك ، فليس ذلك لمجرد انى ابين لك مدى اهتمامى ، فانت تعلم اننى آلفك واحبك ، وانما اسألك لانه يجب على ان اعرف لماذا ترحل ..

فاجابنى قائلا فى هدوء :

ـ انه يصعب على كثيرا ان اقول لك الحقيقة ، وان أقول لـك لماذا ارحل .. وقد فكرت فيك مليا ـ وفى نفسي ـ خلال هـذا الاسبوع ، فقررت انه يجب على أن ارحل . انك تفهمين لمـاذا فاذا كنت تحبيننى فلا تسألينى ..

ومسح سيرج جبينه بيده ، ثم غطى عينيه بنفس هذه اليـد ، واضاف قائلا : « ان هذا صعب على .. ولكنك تفهمين يا كاتيا »

فاخذ قلبى يدق فى صدرى بعنف .. وقلت له :

ـ انى لا استطيع ان افهم .. لا اسـتطيع ! ولـكن .. أنت ، تكلم .. بحق السماء ، وبحق هذا اليوم الذى نحن فيه ... تكلم، ففى استطاعتى ان افهم كل شيء فى هدوء ..

فغير موضعه .. وتطلع الى ، ثم امسك بغصن شجرة الورد فرفعه قليلا ، ثم قال ـ بعد لحظة صمت ـ بصوت كان يحاول عبثا ان يجعله ثابتا هادىء النبرات :

ـ ساحاول مع ذلك أن ادلى اليك ببعض المبررات على الرغم من ان ذلك يبدو لى سخيفا ، ويكاد يكون مستحيلا أن أعبر عنـه بالالفاظ ، فضلا عن انه صعب بالنسبة الى !

وما كاد ينتهى من هذه الكلمات ، حتى قطب ما بين حاجبيـه كأنما يشعر بألم جسمانى .. وقلت له :

ـ حسنا !..

فقال :

ـ تصوري ان هناك رجلا محورا اتعبته الحياه ، ولنفترض ان اسمه « أ » .. وان هناك سيدة ـ ولنقل ان اسمها « ب » ـ شابة ، سعيدة ، لا تعرف بعد شيئا عن الحياة .. وان هذا الرجل كان يحبها كابنة بسبب علاقات عائلية معينة .. وكان يخشى ان يتطور حبه هذا الى حب من نوع اخر ..

***

وصمت سيرج فلم اقاطعه .. وفجأة ، استأنف حديثه بصوت حاسم النبرات ـ ودون أن ينظر الي ـ قائلا : « اذ يعتقد ان « ب » شابة صغيرة السن ، وانها لا تزال تنظر الى الحياة في غير حد ، وانه قد يحدث بسهولة كبيرة ان يحبها ، وان « ب » قد تتسلى بهذا الحب . ولاحظ ذات يوم ان شعورا شديد الوطأة ـ كانه الندم ـ قد تسرب الى نفسه فتملكه الذعر .. وخشى ان تفسد علاقات الصداقة الطيبة ، فقرر ان يبتعد قبل ان تتغير طبيعة هذه العلاقات ..

وما كاد سيرج يتم عبارته حتى وضع يده على عينيه في اهمال ظاهر ..

فقلت على الفور وانا اكبت انفعالي :

ـ ولماذا كان يخشى ان يتطور حبه الى حب اخر ؟ ترى هل بدت له غير جادة في حبها ..؟!

فأجابني سيرج قائلا ، وقد بدا عليه أنه جريح :

ـ انك صغيرة السن ، ولكنى لم اعد كذلك .. وقد يحلو لك ان تمزحي بالحب ، ولكن يلزمني انا شيء اخر ..

وصمت قليلا ثم اضاف يقول : « هذا هو ما قاله « أ » ، ولكن هذا كله سخف ، وانت تفهمين الان لماذا ارحل .. كفى كلاما في هذا الموضوع .. ارجوك ! »

فقلت والدموع تهز صوتي :

ـ كلا ، كلا .. بل لنتكلم فيه .. فهل كانت تحبه ام لا ؟

ولم يجب سيرج .. فاستطردت اقول : « وان كان لا يحبها ، فماذا كان يلعب معها كما يلعب مع صبية صغيرة ؟

فأجابني مقاطعا :

ـ نعم ، نعم .. ان « ا » كان محطما ، ولكن هذا الان قد انتهى، وافترقا وهما صديقان متفقان !

فسألته قائلة ، وانا مذعورة مما كنت اقول :

ـ ولكن هذا امر بشع .. أليست هناك نهاية اخرى ؟

ـ بلى .. هناك نهاية اخرى ..

ورفع يده عن وجهه المضطرب ، ونظر الى وهو يقول :

ـ بل هناك نهايتان مختلفتان .. ولكن ، بحق السماء ، لا تقاطعيني بعد الان وانصتي الى في هدوء !

***

ونهض سيرج ، وقد علت شفتيه ابتسامة كئيبة مؤلمة ، واستطرد قائلا : « ان البعض يقولون ان « ا » قد جن اذ أحب « ب » حبا غير منطقي وصرح لها به ... ولكنها اكتفت بأن سخرت منه ، فالامر بالنسبة اليها لم يكن الا مزاحا ، أما بالنسبة اليه فكان مشكلة حياته بأسرها » ..

فارتجفت .. وحاولت ان أقاطعه لاقول له انه سمى الا يتكلم نيابة عنى .. ولكنه منعنى من ذلك ووضع يده على يدى ، وأنهى حديثه قائلا فى صوت مضطرب : «انتظرى .. يقول اناس آخرون انها أشفقت عليه ، وتخيلت هذه اليائسة التى لم تعرف الدنيا بعد انها تستطيع حقا أن تحبه ، فارتضت ان تكون زوجة له .. واعتقد هو ـ كالمجنون ـ ان حياته يمكن ان تبدأ من جديد .. ولكنها لاحظت هى نفسها انها كانت تخدعه ، وانه كان يخدعها ..

وكف سيرج عن الكلام لحظة ، ثم قال فى ايجاز وقد بدا عليه انه لم يكن فى حالة تسمح له بأن يقول اكثر من ذلك : « كفانا كلاما فى هذا الموضوع ! »

وجاء ليجلس امامي من جديد ، وهو يكرر قائلا : «كفى كلاما»! وكان يبدو واضحا انه كان يترقب بلهفة كلمة منى .. وكنت اريد حقا ان اتكلم ، ولكنى كنت عاجزة عن الكلام ، فقد كان هناك شيء يجثم على صدرى ..

ورفعت اليه عينى فرأيته شاحبا ترتعد شفته السفلى ، وكنت اقاسى من اجله اشد الالم .. فبذلت جهدا جديدا ، ونجحت فجاة فى ان اقطع الصمت الذى كان يشلنى ، وقلت بصوت بطىء مركز كنت اخشى ان يتداعى فيعاودنى العجز عن الكلام :

ــ ثمة نهاية ثالثة لهذه القصة ..

***

وتوقفت عن الكلام ، ولكنه ظل صامتا .. فاردفت قائلة :

ــ وتتلخص النهاية الثالثة فى ان « ا » لم يكن يحب « ب » ، فسبب لها الما .. الما كبيرا ، وكان يعتقد ان له الحق فى ذلك ، فرحل .. بل فعل ما هو اكثر من ذلك ، ففاخر بما فعل ..

وسكت لحظة قلت بعدها : « ان الفراق لم يحدث من ناحيتى بل من ناحيتك ، فقد احببتك من اول يوم .. »

وحينما نطقت بكلمة « احببتك» ، تغير صوتى بطريقة لا ارادية .. وتحولت فجاة نبرته البطيئة المركزة الى نوع من الصياح فيدانى اثار الذعر فى نفسى !

كان سيرج واقفا امامى شاحب الوجه ، وقد تضاعف اضطراب شفتيه ، وانحدرت على خده دمعتان كبيرتان .. فصحت اقول فى ... وانا اختنق من الغيظ ومن دموعى المحبوسة :

ــ انك مخطىء فى تصوراتك واوهامك ..

ونهضت لابتعد ، وانا اضيف قائلة : « ولماذا .. كل هذه الاوهام ؟ ... »

ولكنه اندفع نحوى .. واسند راسه الى ركبتى ، واخذت شفتاه المرتجفتان تقبلان يدى المضطربتين ، بينما راحت عيناه

تغرقهما بالدموع وهو يتمتم قائلا :

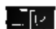
ـ آه ! يا الهي ! يا الهي ! لو أنني ..

واخذت اردد في صوت مرتعش :

ـ لماذا ؟.. لماذا ؟..

ولم تكد تنقضي خمس دقائق ، حتى كانت سونيا تسرع الى الطابق الاعلى حيث كانت ماشا ، ثم تطوف أرجاء البيت كله وهي تصيح قائلة :

ـ ان كاتيا ستتزوج سيرج ميخايلوفتش ..



الفصل الخامس

حفل الزفاف

زواج بلا ضوضاء

لم يكن هناك ما يدعو لارجاء زفافنا ، ولم يكن أحد منا يرغب فى ذلك .. الا ان ماشا كانت تريد الرحيل الى موسكو لشراء بعض الحاجيات والتوصية على ثوب الزفاف . وكانت والدة سيرج تلح على ابنها فى ان يشترى عربة جديدة واثاثا جديدا وان يبدل ستائر المنزل قبل الزواج ، ولكننا أصررنا على ان يتم ذلك فيما بعد ، وأن يعقد زواجنا بعد عيد ميلادى بأسبوعين بلا ضوضـــاء ، ولا ثوب للزفاف ، ولا فتيات شرف ، ولا عشاء أو شمبانيا ، ودون شيء من الملحقات التقليدية للزواج ..

وقص على سيرج كم كانت امه غاضبة لان الزفاف سيتم هكذا بلا موسيقى ولا سيل من صناديق الهدايا ، ودون أن يجدد البيت بأسره كما حدث قبيل زفافها الذى تكلف ثلاثين الفا من الروبلات .. وكم بحثت من وراء ظهره فى الخزائن والصناديق والصوانى ، وعقدت اجتماعات واجريت مشاورات جدية مع « ماريوشكا » — مدبرة المنزل — بشأن بعض الاسطة والستائر « والصــوانى » اللازمة ..

وفى بيتنا ، كانت ماشا تفعل بعض الشيء مع خادمتى «كوزمينشنا» ولا تقبل مراحا فى هذا الشأن .. وكنت مقتنعة تماما بأنى حين كنت اتكلم مع سيرج بشأن مستقبلنا ، فاننى لم أكن اتبادل معــه سوى الحديث الناعم الحلو الذى لا يغنى ولا يسمن — كما هــو مالوف فى مثل موقفنا — وكان من رأيها أن جوهر سعادتنا نفســه كان لا يتوقف الا على روعة حياكة ثيابى وجمال اثاثى ، وعلى مدى المهارة الفنيــة التى تمد بها « الاغطيــة » والمناشف والســـتائر وما اليها ..

وفى كل يوم ، كانت تحـدث عدة اتصـالات غريبـة بين بيتى « بوگروفسكى » و « نيكولسكى » بشأن الكيفية التى ترتب بها الامـور .. ومع أن جميع مظاهر العلاقات الطيبـة الحنون كانت موفورة بين ماشا ووالدة سيرج ، فقد كنا نشعر بأن بينهما شيئا من الخلاف فى وجهات النظر .. كان يبـدو احيانا فى صـورة دبلوماسية فيها كثير من الرقة والمهارة !

وكانت « تاتيانا سيمينوفنا » والدة سيرج التى توثقت معرفتى بها ، سيدة متعجرفة من العهد البائد ، وربة بيت قاسية .. ولم نكن سيرج يحبها كما يجب أن يحب الابن امه وحسب ، بل كان يرى فيها أذكى وافضل وارق والطف امرأة فى العالم !

والواقع أن والدة سيرج كانت معنا دائما ــ ومعى انا بوجـه خاص ــ على قدر كبير من الطيبة ، وكانت تبدى فرحها لزواج ابنها .. ولكنى حينما أصبحت خطيبة لهذا الابن ، بدا لى انها كانت تريد أن تشعرنى بأنه كان يستطيع أن يتزوج فتاة أفضل منى ، وان على الا انسى ذلك ابدا .. فكنت ادرك هذا جيدا وأوافقها على هذا الرأى !

***

وفى هذين الاسبوعين الاخيرين ، كان كل منا يرى الآخر كل يوم .. اذ كان سيرج يأتى لتناول العشاء ويبقى فى بيتنا الى منتصف الليل .. وعلى الرغم من انه كان يقول لى كثيرا ــ وكنت أعرف أنه يصدقنى القول ــ انه لا يستطيع أن يعيش بدونى ، فانه كان لا يمضى معى ابدا النهار كله ، وكان يتصرف بطريقة يستطيع معها أن يتابع عنايته باعماله ..

وظلت علاقتنا الخارجية حتى يوم الزفاف كما كانت من قبل ، وظل الحديث يجرى بيننا بكلفة .. وكان لا يقبل حتى يدى ، ويتجنب الفرص التى كانت تسمح له لينفرد بى .. بل ولا يحاول أن يخلق هذه الفرص ، وكأنه كان يخاف ان يطلق العنان لذلك

الحنان الكبير الخطير الذى كان يحمله فى نفسه

وكان الجو رديئا طيلة هذه الايام ، فقضينا اكثر وقتنا معا فى الغرفة ، وكان الحديث يدور بيننا فى الركن الواقع بين البيانو والنافذة

وذات يوم ، قال لى بينما كنا نجلس وحدنا معا ـ فى هذا الركن ـ فى ساعة متاخرة :

ـ هل تعرفين ان هناك شيئا اريد ان احدثك عنه منذ وقت طويل ، ولم انقطع عن التفكير فيه وانت تعزفين على البيانو ؟

ـ لا تقل شيئا ، فانا اعرف كل شيء ..

ـ أحقا لا داعى للكلام ؟

ـ اذا كنت ترى انه من الضرورى أن تحدثنى عنه فلا باس ..

ـ هل تذكرين حينما قصصت عليك قصة « ا » « ب » ؟

ـ وكيف لا اذكر هذه القصة ؟ .. وينبغى ان نسر لانها انتهت هكذا ...

لقد اوشكت ان احطم سعادتى بيدى ، ولكنك انقذتينى ... واسوا ما فى الامر انى كنت اكذب حينئذ ، وان ضميرى ليشعر بذلك واريد اليوم ان اقول لك كل شيء ..

ـ آه ! لا تفعل ذلك رحمة بى !

فقال لى وهو يبتسم :

ـ لا تخافى شيئا ، بل يجب على فقط ان ابرر موقفى .. فحينما بدات معك الكلام كنت أريد ان اتناقش ..

ـ ولماذا نتناقش ؟ ان من واجبنا الا نتناقش ابدا

وصمت لحظة وهو ينظر الى ثم قال :

ـ وبعد ، فلم يكن ما كنت أقوله مع ذلك سخفا ، اذ الواقع انه كان لدى ما اخشاه ، وكنت على حق فى ذلك ، فانى آخذ منك كل شيء ولا اعطيك الا القليل .. انك لا تزالين صغيرة ، وانت البرعم الذى لم يتفتح بعد ، وتحبين لاول مرة ، بينما انا ...

فصحت قائلة :

ـ آه ! نعم ! قل لي الحقيقة اذن ..

ولكنني سرعان ما شعرت بالخوف من اجابته فاضفت قائلة :

ـ كلا ، كلا .. لا تقل لي شيئا !

فادرك على الفور ما كنت افكر فيه ، وقال :

ـ تريدين اذن ان تعرفي اذا كنت قد احببت من قبل ؟.. اليس كذلك ؟.. في وسعي ان احبرك بذلك.. كلا ، انني لم احب .. ولم اجرب ابدا مثل هذا الشعور ... ولذلك ، فقد رأيت انه كان يجب على ان افكر مليا قبل ان اقول لك اني احبك ... ماذا اعطيك ؟ الحب ؟ هذا صحيح ..

فقلت وانا انظر مباشرة في عينيه :

ـ وهل الحب شيء قليل ؟

ـ نعم .. انه شيء قليل يا صديقتي .. قليل عليك . ان لديك الجمال والشباب ، وكثيرا ما تمنعني السعادة من النوم اثناء الليل فلا اكف عن التفكير في كيفية معيشتنا معا .. لقد عشت طويلا .. ولكن يبدو لي مع ذلك اني لم التق بالسعادة الا منذ ايام ، وان حياة حلوة هادئة تنتظرني في بيتنا المعزول ، مع امكانيات واسعة لعمل الخير من اجل فلاحينا الذين يسهل كثيرا تحقيق الخير لهم والذين لم يألفوا كثيرا ان يعمل الخير من اجلهم .. ثم ان هناك العمل ، العمل الذي يعرف الجميع أنه ينتج عنه دائما بعض النفع .. وهناك أيضا التسلية ، والطبيعة ، والكتب ، والموسيقى ، وعطف صادر عن قلب مفعم بالحب .. تلك هي السعادة ، وهي سعادة أسمى بكثير عن كل ما كنت احلم به .. وهناك ، فوق كل ذلك ، صديقة مثلك ، وربما أسرة ، وباختصار : كل ما يمكن للرجل ان يشتهيه في هذه الدنيا !

فقلت له في ايجاز :

ـ نعم ..

فعاد يقول :

ـ نعم بالنسبة الى .. انا الذي تجاوزت مرحلة الشباب ، ولكن انت .. انك لم تعيشي بعد ، وكان من المحتمل أن تجري وراء السعادة في شيء اخر ، وربما كنت تجدينها في هذا الشيء ..

ـ كلا .. انني لم ارغب ابدا في شيء ، ولم احب شيئا كما احببت هذه الحياة العائلية الحلوة ، وقد اخبرتني منذ قليل بما افكر فيه وما اتمناه وأرجوه ..

فابتسم وقال :

ـ ان الامور تبدو لك هكذا يا صديقتي ، ولكن ما قلته يعتبر شيئا قليلا بالنسبة اليك ..

وسكت لحظة قصيرة ، ثم كرر قائلا وقد بدت على محياه علامات التفكير :

ـ ان لديك الجمال والشباب ..

ومع ذلك فقد صدقت ما قال ، لانني كنت ارى انه لا يريد ان يصدقني ، ولانني فهمت انه كان يبدو عليه انه يلومني على جمالي وشبابي .. فقلت له في شيء من الغضب :

ـ قل لي لماذا تحبني ؟ .. الشبابي .. ام من اجلي انا نفسي ؟

فأجابني قائلا وهو يتأملني بنظرة فاحصة كلها اغراء :

ـ لست أدري ، ولكنني احب ..

فلم اقل شيئا وبطرف في عينيه بحركة لا ارادية .. وفجأة ، حدث لي شيء غريب : فقد كففت عن رؤية ما حولي ، وامحى وجهه من امامي .. ولم أعد امير غير بريق عينيه اللتين كانتا امام عيني مباشرة .. ثم بدا لي ان عينيه تمتدان الى قلبي ، واصبح كل شيء غامضا فجأة .. ولم اعد ارى شيئا على الاطلاق ، واضطررت الى ان اغمض عيني قليلا لانتزع نفسي من هذا الشعور الممزوج بالمتعة والفزع والذي كانت نظرته تثيره في نفسي

***

وغدا الجو صحوا في مساء اليوم السابق ليوم زواجنا ..

واشرقت علينا اول امسية ربيع صحوة بعد هذه الامطار التى بدا بها فصل الصيف .. كانت السماء صافية شاحبة ، وذهبت لانام وانا افكر فى أن الجو سيكون جميلا فى اليوم التالى ، يوم عرسى

واستيقظت فى ذلك الصباح والشمس فى وجهى وانا اشعر بانه اليوم المشهود .. وكأنما كان ذلك كفيلا بأن يثير الفزع والدهشة فى نفسى . ونزلت الى الحديقة ، وكانت الشمس قد اشرقت منذ لحظات واخذت تسطع من خلال اشجار التيليو القائمة فى الممر والتى كانت أغصانها المصفرة تنفض أوراقها وتغمر به الممر .. ولم يكن من المستطاع ان يجد المرء سحابة واحدة فى هذه السماء البـاردة الصافية ..

وقمت أسال نفسى : « أيمكن حقا ان يكون هذا هو اليوم الذى كنت أحلم به ؟ .. وهل من الممكن الا استيقظ هنا غدا ، وانما فى بيت « نيكولسكى » هذا بأعمدته ، وهو بيت غريب الآن بالنسبة لى ! هل حقا اننى انتظره واترقب وصوله هنا ، وانى أتحدث عنه فى المساء مع ماشا ؟ وانى لن اجلس بعد ذلك امام البيانو الىجواره فى ردهة بيتنا بيوكروفسكى ؟ وانى لن اوصله وانا أرتجف خوفا اثناء سيرى خلفه فى ظلام الليل البهيم ؟

ومع ذلك ، فقد تذكرت انه قال لى بالامس ان هذه كانت آخر مرة يأتى الى فيها . وكانت ماشا من جهة أخرى قد حثتنى على ان أجرب ارتداء ثوب الزفاف ، فكنت أصدق احيانا وبعدها يخامرنى الشك من جديد .. ترى هل سابدأ حقا منذ هذا اليوم فى ان اعيش مع حماة ، وبغير « نادين » ولا ماشا ولا جريجوار العجوز ؟ وانى فى المساء لن اقبل خادمتى ، ولن اسمعها تقول لى وهى ترسم علامة الصليب حسب العادة القديمة : « طاب مساؤك يا آنسة » ؟ الن اعطى سونيا — بعد الآن — دروسها المعتادة والعب معها ؟ واقرع بقبضة يدى جدار غرفتها فى الصباح فاســمع ضحكتها الرنانة ؟ وهل من الممكن ان أصبح اليوم غريبة تقريبا عن نفسى ، واعيش حياة جديدة تركزت بها امنياتى وآمالى فى .. وهل من الممكن ان

يستمر احساسي بالنشوة والسعادة لهذه الحياة الجديدة ؟

وكنت انتظر سيرج بصبر نافد لشدة ما كان عسيرا على ان اظل وحدي مع هذه الافكار .. وجاء سيرج مبكرا ، فايقنت فقط فى هذه اللحظة انني ساكون زوجته فى نفس هـذا اليوم ، ولم يعد يصحب هذه الفكرة شيء يثير الفزع فى نفسي ..

***

وذهبنا الى الكنيسة لنستمع الى صلوات اقيمت من أجل والدي .. واخذت افكر اثناء عودتنا الى البيت ، وانا استند فى صمت الى ذراع الرجل الذي كان خير صديق لمن كنت أفكر فيه .. وليته كان لا يزال فى هذه الدنيا ! ..

لقد كان راسي ملتصقا ببلاط الكنيسة البارد طيله الوقت الذي كنت راكعة فيه داخل الكنيسة اثناء تلاوه الصلوات .. وكنت قد تذكرت والدي فى عمق واحسست أن روحه كانت تفهمني وتبارك اختيـاري ، وتصورت ان روحه كانت تحلق فوقنا وتنزل بركتها على ..

وكانت هذه الذكريات والآمال والسعادة والاحزان تمتزج فى نفسي فى شعور واحد رهيب وعذب معا ، وهو شعور كان يتمشى مع هذا الجو الراكد السيف ، وهذا الهدوء ، وهذه الحقول الجرداء ، وهذه السماء الشاحبة التي كانت اشعة شمسها اللامعه الواهنة تحاول عبثا ان تحرق خدي ..

وايقنت فى تلك اللحظات أن الرجل الذي يصاحبني ، كان يفهم مشاعري ويشـاطرني اياها .. لقد كان يسير فى صمت ويخطو بطيئه . وكنت من آن لآخر اتطلع الى وجهه ، فارى علامات التركيز النفسي مرتسمه عليه ، وهي حالة من حالات النفس تتجرد فيها من الحزن ومن السرور معا .. وكان وجهـه ينسجم هكذا مع الطبيعة ومع قلبي ..

والتفت الى سيرج فجـاة ، فلاحظت انه كان لديه ما يريد ان

يمضى به الى .. ماذا ؟ الن يفضى الى بما يشغل باله ؟ ولكنه فى تلك اللحظة حدثنى عن والدى بالذات ، ثم اضاف قائلا دون ان يذكر اسمه : « لقد حدث ذات يوم ان قال لى مرحا : انك ستتروج صغيرتى كاتيا »

وحدثنى اليه ـ فى شدة ـ بذراعه اننى كنت استند اليها ، وقال لى : « كم كان والدى خليقا بان يكون سعيدا اليوم ! »

ثم تغلغل بنظرته فى اعماق عينى ، واستطرد يقول : « نعم .. انك كنت لا تزالين طفلة ، وكنت حينئذ اقبل عينيك لمجرد انهما كانتا تشبهان عينيه ، ولم يدر بخلدى قط انهما ستكونان عزيزتين لدى فى يوم من الايام لذاتهما فقط .. »

***

كنا نسير على مهل فى الطريق الضيق غير المرصوف الذى يتوسط الحقول ولا يطرقه كثير من الناس .. وكنا نطأ باقدامنا ذلك القش المتناثر على الارض ولا نسمع الا وقع خطانا واصواتنا .. وكانت الشمس تنثر اشعة خالية من الدفء .. وكانت اصواتنا حين نتكلم تحدث اصداء تتردد فى الفضاء وتظل معلقة فوق رؤوسنا وسط هذا الجو الراكد .. وكان يبدو أننا وحدنا فى هذا العالم بأسره تحت هذه القبة اللازوردية التى كانت تضطرب فيها اشعة الشمس العابرة ..

وحينما بلغنا البيت ، وجدنا والدته هناك ومعها بعض الضيوف الذين لم نستطع ان نتجنب دعوتهم .. ولم أصبح معه على انفراد الا لحظة خروجنا من الكنيسة وركوبنا العربة للذهاب الى بيت نيكولسكى

***

كانت الكنيسة تكاد تكون خالية ، وبنظرة سريعة لمحت امه واقفة على بساط الى جوار المحراب ، وكانت ماشا ترتدى قبعة مزينة باشرطة ملونة ، وكان خداها مبتلين بالدموع .. وكان بالكنيسة ايضا اثنان أو ثلاثة من مزارعينا ، كانوا ينظرون الى فى فضول ..

واخذت انصت الى الصلوات ورددها ، ولكن دون ان يكون لها صدى فى نفسى ، وكنت لا استطيع ان اصلى أو نفسى .. وانما كنت انظر فى شرود الى الصور والشموع والصليب الموشى الذى كان يتدلى على صدر القسيس ، والى صورة العذراء مريم وهى تحمل السيد المسيح ، والى نوافذ الكنيسة .. فلا افهم شيئا من كل ذلك ، بل كنت اشعر فقط بان شيئا غير عادى كان يجرى من اجلى ..

والتفت القسيس نحونا وفى يده الصليب ، فهمات وقال انه كان قد عمدنى ، وان الله قد قدر له كذلك ان يتم زواجى على يديه .. وقفنا ماشا ووالدة سيرج ... ثم سمعت حريحوار سادى العربة ويدهشت .. وسرعان ما تملكنى الذعر اذ ادركت ان كل شىء قد انتهى ، دون ان يحدث فى نفسى ما يقابل ذلك الرباط المقدس الذى تم بيننا منذ لحظة !

وقبل كل شىء الآخر ، فبدت لى هذه الصلة غريبة بالنسبة الى شعورى الدفين .. حتى اننى لم استطع ان امنع نفسى من ان اتساءل : « هل هذا كل شىء ؟ »

وخرجنا الى مدخل الكنيسة فسمعت دويا كبيرا .. وهبت نسمات منعشة عطرت وجهى ، بينما كان سيرج يعيننى على ان اتخذ مكانى فى العربة وقد تأبط قبعته ..

ومن خلال زجاج العربة ، لمحت ضوء القمر يتموج كما يحدث عادة فى الليالى البارده ، وجلس سيرج الى جوارى واغلق الباب . وشعرت فى تلك اللحظة بأن شيئا يحترق فى نفسى ، كما لو كانت الثقة التى اغلق بها باب العربة قد جرحت شعورى !

واصطدمت عجلات العربة بحجر فى الطريق ، ثم دخلنا بعد ذلك فى طريق آخر اكثر حنانا .. وكنت انزوى فى ركن العربة اتامل الحقول التى كان القمر يغمرها بفيض من ضيائه والطريق الذى كان يبدو أنه يجرى . ودون ان انظر الى سيرج ، كنت اشعر بانه

تلتصق بى ، ففكرت قائلة فى نفسى : « أهذا هو كل ما تمنحه لى هذه الدقيقة الاولى التى كنت انتظر منها أشياء كثيرة ؟ » وشعرت حينئذ بالاذلال والاهانة فى نفس الوقت ، وانا اجد نفسى جالسة هكذا وحدى معه ، وقريبة جدا اليه !

فالتفت اليه وفى نيتى ان اقول له اى شىء ، ولكن لم تخرج كلمة واحدة من بين شفتى .. وكان يبدو انه لم يعد هناك اى اثر فى نفسى لحنان قديم ، وان شعورى هذا بالفزع والاهانة قد حل تماما محل هذا الحنان !

واجاب سيرج فى رفق على نظرتى قائلا :

ـ لم اكن اجرؤ حتى هذه اللحظة على الاعتقاد بأن هــذا كان يمكن أن يحدث .. !

ـ وأنا .. لست ادرى لماذا انا خائفة !

فامسك بيدى ومال نحوى قائلا :

ـ هل أنت خائفة منى يا كاتيا ؟

وكانت يدى تستند الى يده بلا حياة .. وقلبى يكاد يكف عن الحركة ..

فصمتت قائلة :

ـ نعم ..

ولكن ، فى نفس اللحظة ، احسست بقلبى يدق فجأة بعنف أكثر ، وارتجفت يدى وهى تمسك بيده .. وبحثت عيناى عن عينيه فى شبه الظلام ، وشعرت فجأة باننى لم اعد خائفة منه ، وان هــذا الفزع لم يكن سوى الحب .. الحب الجديد الطارىء الذى ازداد قوة وحنانا عن ذى قبل .. وشعرت باننى اصبحت ملكا له بكل مشاعرى ، واننى كنت سعيدة لوقوعى تحت سلطانه !

الفصل السادس

بعد الزواج

العروس والحماة

وبدا لنا ان الايام والاسابيع ، بل وشهرين كاملين من حياة العزلة فى الريف قد مرت بنا دون ان نشعر ، ولكن احاسيس هذين الشهرين وسعادتهما كانت كافية لملء حياة باكملها .. ولم تتحقق احلامنا المعنفة بطريقة ترتيب حياتنا — كما كنا ننتظر — ومع ذلك، لم تكن الحقيقة باقل من احلامنا !

ولم تكن حياتنا فى تلك الفترة حياة العمل البحت الحافلة بالتقشف والواجبات والتضحيات على نحو ما كنت اتخيلها ايام خطبتى ، بل على العكس كنت اشعر فيها شعور الحب الانانى الاحد ، وبمسرات لا حد لها ، وبانى نسيت كل شىء فى العالم ..

والواقع ان سيرج كان يذهب فى بعض الاحيان الى غرفة مكتبه حيث ينهمك فى بعض الاعمال ، كما كان يذهب احيانا اخرى الى المدينة من اجل اعماله كذلك ، ويلاحظ شئون زراعته .. فكنت الاحظ انه كان ينتزع نفسه من عندى انتزاعا ، وكان يقاسى من جراء ذلك الما كبيرا .. وكان يعترف لى بعد ذلك بنفسه بان المكان الذى لا اكون انا فيه يبدو له مظلما كئيبا لا حياة فيه ..

وكنت احاول ان اتسلى بالقراءة او اشتغل نفسى بالموسيقى وبحماتى وبنشاط المدارس ، اثناء غيابه .. ولكن ذهنى كان دائما معه وخواطرى وافكارى كلها تدور حوله ، ونفسى تتلهف لرؤيته ، فقد كان سيرج هو المخلوق الوحيد فى هذا الكون بالنسبة الى ، وكنت اعتبره اجمل واطهر من فيه .. ومن ثم فلم اكن استطيع ان اعيش من اجل سواه ، وكنت احرص على ان اظل فى عينيه دائما كما كان يريدنى ان اكون .. وكان هو يرانى ايضا اجمل نساء

العالم واكثرهن سحراً ، ويسبغ على كل صفات الكمال الممكنة ، فكنت أجتهد فى ان اكون فى عينيه احسن زوجة فى الوجود ..

***

وكان بيتنا مسكنا ريفيا قديما ، توالت عليه بضعة اجيال من الآباء والاجداد .. كان كل منهم يتبادل وزوجته الحب ، ويعتبران انهما أسعد الازواج . وكانت تشع من كل شيء ، ومن كل ركن فى هذا البيت ، ذكريات عائلية طيبة نقية .. ولم اكد أضع قدمى فيه حتى شعرت بأن هذه الذكريات قد اصبحت ذكرياتي وصارت جزءاً من كيانى ..

وكانت تاتيانا سيميونفنا قد اعدت هذا البيت ونسقته على الطريقة القديمة . ولست استطيع أن اقول ان كل ما فيه كان جميلا أو أنيقا ، ولكنه كان دون شك نظيفا منظما يوحى بالاحترام، ابتداء من ادوات المائدة الى الاطعمة والاثاث .. فكان الاثاث مرتبا فى الصالون فى ذوق ونظام ، وكانت الجدران مزينة بالصور ، والارضية تكسوها ابسطة الاسرة القديمة . وكان بالصالون الصغير بيانو قديم ، وصوانان للملابس مختلفا الشكل ، واريكة ، ومناضد مطعمة بالنحاس .. وكانت غرفتي الخاصة قد اعدت تحت اشراف السيدة تاتيانا سيميونفنا وعنايتها ، وتضم أجمل ما فى البيت من قطع الاثاث . وكنت لا اجرؤ فى أول الامر على النظر الى هذه الاشياء الا بعين الخجل ، ولكنها ما لبثت ان اصبحت عزيزة على.. وكاننا اصدقاء !

وكنا لا نسمع صوتا لحماتى فى البيت .. وكان كل شيء فيه يسير فى نظام تام وكانه ساعة مضبوطة ، على الرغم من أن البيت كان يضم عددا كبيرا من الناس . وكانوا جميعا ينتعلون احذية طرية لا كعب لها ، لان أصوات النعال وقرقعة الكعوب كانت ابغض الاشياء الى تاتيانا سيميونفنا !.. وكانوا جميعا يرتعدون أمام السيدة العجوز ، ولكنهم كانوا يؤدون واجبهم نحوى فى رضا

وسرور ، ويتسابقون في سبيل خدمتي !

وكان خدم البيت يغسلون « ارصيته » بانتظام ، وينظفون ابسطته في كل يوم سبت ، ويرتلون التراتيل شكرا لله في اليوم الاول من كل شهر ، ويغمسون أيديهم في الماء المبارك .. وفي عيد ميلاد تاتيانا سيمنوفنا وعيد ميلاد ابنها سيرج — ثم في عيد ميلادي أنا الذي حل لاول مرة في الخريف — كانت تقام وليمة يدعى اليها كل الجيران .. وكان ذلك يحدث دائما بنفس الطريقة التي كان يتم بها منذ اقدم زمن تستطيع ان تعيه ذاكرة تاتيانا سيميونفنا

وكان زوجي لا يتدخل ابدا في شيء من شئون البيت ، وانما كان يتبع بالعناية شئون الزراعة والفلاحين ، وكان يوليها رعاية خاصة .. فكان يستيقظ في ساعة مبكرة جدا حتى اثناء الشتاء ، الى حد أنني لم اكن أستطيع ان اراه قبل خروجه .. ثم كان يعود عادة ساعة تناول الشاي ، وكنا نتناوله على انفراد . وبعد أن نتحدث معا في شئون الزراعة وما يتعلق بها من مشاكل ، كانت تتملكه — بصورة تكاد تكون دائمة — تلك الحالة النفسية المرحة الخاصة به التي كنا نطلق عليها حالة « الانطلاق الفطري » ..

وكثيرا ما كنت اسأله عما فعله في الصباح ، فكان يقص علي حينئذ اعمالا جنونية تحملنا نختنق من الضحك .. وكنت اطلب منه احيانا ان يقص علي قصة جادة ، فكان يقصها علي وهو يغالب ابتسامة كانت تريد ان تفتر الى شفتيه ، وكنت أنظر الى عينيه وحركات شفتيه فلا أفهم شيئا مما كان يقول ، لانني كنت أسلى فقط بالتطلع الى عينيه والاستمتاع بصوته ..

وكان يقول لي احيانا : « هيا يا كاتيا .. كرري لي ما كنت أقول ! » .. ولكنني كنت لا أستطيع أن أكرر له أي شيء !

***

كانت تاتيانا سيميونفنا لا تظهر قبل العشاء ، وتتناول الشاي على انفراد .. وكانت لا تبلغنا تحياتها ، ولاتعبر لنا عن تمنياتها ، الا

عن طريق «سعراء» .. ولذلك ، فانى كنت الاقى مشقة فى ان امنع نفسى من الضحك حينما كانت خادمتها الخاصــة تأتينـا ــ وقد عقدت ذراعيها على صدرها ــ لتبلغنا فى لهجة رزينة متزنة أن سيدتها أمرتها بأن تستفسر منا عما اذا كنـا قد نمنا جيـدا ومن رأينا فى الحلوى ..

وكان من النادر أن نلتقى معا أنا وسيرج حتى تحين ساعة الغداء، فكنت ألعب أو أقرأ وحدى ، وكان هو يكتب أو يخرج من جديد.. ولكننا كنا نهبط الى الصالون فى تمام الساعة الرابعة للغداء ، فكانت حماتى تخرج من غرفتها .. فيظهر حينئذ من حولها بعض النبلاء المساكين ، ونفر من المحتاج الذين كان يقيم بالبيت اثنان أو ثلاثة منهم بصورة دائمة

وفى كل يوم ، وفقا للتقاليد القـــديمة ، كان زوجى يقدم ذراعه لوالدته ليذهب بهـا الى غرفة المـائدة ، وكانت هى تطلب منه أن يقدم ذراعه الاخرى ..

***

وكانت حماتى تتصدر المائدة .. وكان الحديث يتخذ صفـــة جدية مرنة ممروحة بطابع يكاد يكون رسميا ، ولكن الكلمات التى كنت أتبادلها مع سيرج كانت تحدث شيئا من التنويع اللطيف فى ذلك الجو الرسمى الذى كان يسود المائدة !

وبعد العشاء ، كانت حماتى تجلس فى الصالون فى مقعد كبـير وتأخذ فى « تفتيح » صفحات الكتب الجديدة التى تكون قد وصلت الى البيت ، بينما كنا نحن نقرأ بصوت عال أو نذهب الى الصالون الصغير ونجلس أمام البيانو .. ولطالما قرأنا كثيرا أثناء هـــذا الوقت ، ولكن الموسيقى كانت لا تزال متعتنا المفضلة .. وكانت تهز فى قلبينا ــ فى كل مرة ــ أوتارا جديدة وتكشف لكل منا شيئـــا جديدا عن الآخر . وحينما كنت أعزف الالحان المفضلة عند سيرج، فانه كان يجلس على أريكة بعيدة وكنت لا أكاد المحه .. وكان يجتهد

ى احفاء المشاعر التى كانت تثيرها الموسيقى فى نفسه بدافع من الحياء .. ولكننى غالبا ماكنت اترك البيانو فى اللحظة التى كان لاينتظر فيها منى ذلك على الاطلاق ، واسرع اليه وانا احاول ان افاجئه وفى ملامحه آثار انفعاله ، وان أفاجىء كذلك بريقا يكاد يكون سماويا صادرا من نظرته الشاردة التى كان يحاول عبثا ان يخفيها عنى ..

وكنت أعود لاقدم شاى المساء فى الصالون الكبير ، وكانت الاسرة تجتمع بكامل هيئتها حول المائدة من جديد . ولطالما اضطربت من هذه الجلسة الرسمية الى جوار الموقد - ومن فوقه اناء الشاى - وكاننا فى محكمة ، كماكنت اضطرب من توزيع الاكواب والاقداح .. وكان يبدو لى على الدوام اننى لم اكن جديرة بعد بهذا الشرف ، واننى صغيرة السن أكثر مما ينبغى ، وطائشة الى الحد الذى لا استطيع معه أن اتولى شئون موقد كبير كهذا ، وان اضع كوبا فوق « صينية » « نيكيتا » واضيف قائلة : « انها من اجل « بيير ايفانوفيتش » .. وهذه من اجل « مارى مينيشنا » .. ثم أسأل كلّ واحد من الجالسين قائلة : « هل يكفى مابه من السكر ؟ » واترك بعض قطع السكر بعد ذلك للخادم العجوز وللخدم الآخرين . وكان زوجى كثيرا مايقول : « حسنا .. حسنا جدا ! .. انك تقومين بدور سيدة كبيرة ! » فكان ذلك يثير فى نفسى مزيدا من الخجل ..

***

وبعد تناول الشاى ، كانت حماتى تلعب الورق او تكلف « مارى مينيشنا » بأن تقرأ لها فيه الطالع ، وكانت تقبل كل واحد منا بعد ذلك وتباركنا ، فنذهب الى الجناح المخصص لنا فى البيت ..

ومع ذلك ، فقد كنا نتابع السهرة معا على انفراد - فى اكثر الاحيان - الى مابعد منتصف الليل ، فكان ذلك اجمل واحلى وقت يمر بنا .. كان سيرج يقص على ماضيه ، وكنا نرسم الخطط

ونضع المشاريع للمستقبل ، كما كنـــا نتفلسف فى بعض الاحيان ونناقش هذا الرأى أو ذاك .. وكنا نحاول أن نقول مانقوله بغـــير جلبة او ضوضاء حتى لايسمع حديثنا أحد ..

لقد كنت أعيش أنا وسيرج كغرباء فى هذا البيت القديم الكبـــير الذى كانت تجثم فيه على كل الصدور « تاتيانا سيمينوفنا » مع روح العهد القديم القاسية !

وكنت أشعر نحو حماتى بالاحترام ، مقرونا بشىء من الفـــزع ، وكذلك كان شعورى نحو كل أهل البيت والخادمات المسنـــات ، ونحو الصور وقطع الاثاث .. كما كنت اشعـــــر فى نفس الوقت بأننى أنا وزوجى لسنا هنا فى مكاننا تماما ، وبأن علينـــا ان نلزم جانب الحذر ونحن نعيش فى هذا البيت !

ولازلت اذكر الى اليوم ذلك النظام القاسى ، وهذا العـــــدد الهائل من الناس الفضوليين العاطلين بالوراثة الذين كانوا يعيشون فى بيتنا والذين كنت احتملهم بصعوبة ! .. ولكن هذا الجو نفسه كان يحيى حبنـــا المتبـــادل ويقويه ، وكان كل منا يحـــذر جهد طاقته من أن يبدى استنــــكاره لشىء فى البيت .. وكنت اثور فى بعض الاحيـــان من جراء هذا الهدوء وهذا التسامح ، ومن جـــراء هذا النوع من عدم الاكتراث لكل شىء ، وكنت انعت مثل هـــــذا السلوك بالضعف !

***

وذات يوم ، أظهرت لزوجى ما أعانيه من ضيق فأجابنى قائلا : « عزيزتى كاتيا .. هل يستطيع المرء أن يبدى غضبه من شىء كائنا ماكان بينما يكون سعيدا مثلى ؟.. انه لاهون على المرء ان يتنـــازل للآخرين عن الكثير من حقوقه ورغباته ــ من أن يخضعهم لارادته .. هذه هى عقيدتى منذ زمن طويل ، كمـــا انى مقتنع بانه ليس هناك موقف لايستطيع المرء فيه أن يكون سعيدا .. ان الامور كلها تسير ــ بالنسبة الينا ــ على خير وجه .. ولم أعد أعرف الغضب

أو الانفعال .. وانني أحس اليوم انه ليس هناك شيء واحد يبعث على الضيق او التذمر .. ولكنني أعتقد ـ برغم ذلك ـ ان «الاحسن عدو لما هو حسن » .. اتصدقيني اذا قلت لك ان الخوف يتملكني حينما اسمع جرس الباب يدق ، وحينما اتسلم خطابا .. بل وفي كل صباح حينما استيقظ .. وهو خوف ناتج عن خشيتي من ان يتغير اي شيء .. اذ انني اشعر انه ليس هناك شيء يمكن ان يساوي اللحظة الحاضرة ! »

والحق انني كنت اصدق سيرج .. ولكنني كنت لا افهمه ،وكنت اجد نفسي في حالة طيبة ، واشعر ان كل شيء يسير كما كان ينبغي ان يكون ، وان هناك في اماكن اخرى انواعا اخرى من السعادة ولكنها ليست اكبر من سعادتي وان كانت تختلف منها !

***

وانقضى شهران على هذا المنوال ، ثم اقبل الشتاء محملا ببرده واعاصيره .. ودواماته . وعلى الرغم من ان سيرج كان الى جواري ، فقد بدأت اشعر بانني وحيدة ، وبأن الحياة ليست الا تكرارا رتيبا ، وبانها لا تقدم لي أو له اي جديد ، واننا كنا ـ على العكس ـ كاننا نعود دائما الى الوراء ..

واخذ سيرج ينشغل باعماله أكثر مما كان يفعل من قبل .. وبدا لي مرة اخرى انه كان هناك في قرارة نفسه شبه عالم خاص ، كان لايريد ان يشركني فيه !

وكان يثيرني منه صفاؤه الذي لايمكن تعكيره .. وكنت أحبه كما كنت أفعل من قبل ، كما كنت سعيدة بحبه كما كنت من قبل ، ولكن حبي ظل جامدا على حالته ولم يعد ينمو ويزداد .. كما كان هناك الى جانب الحب شعور آخر اخذ يتسلل الى نفسي ، شعور جديد لا أعرفه كان يملؤني بالاضطراب !

***

وكان قليلا بالنسبة الى ان أستمر في حبرتيب بعدما شعرت بتلك

السعادة الكبرى ، وان احبه لاول مره .. فقد كنت فى مجال المشاعر محتاجة الى الحركة والمغامرة والتضحية بالنفس ، اذ كان هناك فى نفسى فائض من الطاقة لايجد له متنفسا فى حياتنا الهادئة الرتيبة ، وكانت هناك ايضا انطلاقات من الحزن كنت احاول ان اخفيها عنه وكأنها كانت سوءا ، واندفاعات من الحنان العنيف والمرح الذى كان يثير فرحه ..

وكان سيرج يتابع ملاحظة حالتى النفسية ، كما كان يفعل فيما مضى .. واقترح على ذات يوم أن نرحل الى المدينة ، ولكنى طلبت منه الا نذهب اليها والا نغير شيئا فى نوع الحياة التى كنا نعيشها ، فقد كنت سعيدة حقا .. ولكنى كنت اتعذب وانا ارى ان تلك السعادة لم تأت لى منها بأى عمل او تضحية ، فى الوقت الذى كنت اشعر فيه بكل قوى العمل والتضحية تذبل وتئن فى نفسى !

وكنت احبه ، وارى اننى كل شىء بالنسبة اليه .. ولكننى كنت ارغب فى أن يرى الجميع حبنا ، وأن يمنعنى الناس من حبه ، وان احبه بالرغم من ذلك .. لقد كانت نفسى ومشاعرى تجدان مجالا لاشباع رغباتهما ، ولكن كان هناك مع ذلك شعور الشباب بالحاجة الى الحركة ، الذى كان لايجد مايشبعه الى درجة كافية فى حياتنا الهادئة !

لماذا كان يقول لى اننا نستطيع الذهاب الى المدينة حينما كنت ارغب فى ذلك ؟ ولو انه لم يقــــل لى ذلك فلربما فهمت ان هـــذا الشعور الذى كان يضنينى كان من جانبى خيــــالا مفسدا وخطأ وذنبا ..

وفى ذلك الحين ، جال بخاطرى ــ بطريقة لا ارادية ــ اننى كنت استطيع ان انتزع نفسى من الضيق ، عن طريق الذهاب الى المدينة .. وكان ذلك معناه ــ من جهة اخرى ــ انتزاع سيرج من كل ما كان يحبه ، فكنت اشــعر حينئذ بالخجل ، وكان من الصعب على ان اتصور انى أرغمه على هذه التضحية من أجلى ..

كان الوقت يمر ، والجليد يتراكم اكثر واكثر الى جوار جدران البيت .. وكنا بمفردنا دائما ، ودائما كل منا فى وجه الآخر ، فى حين انه كان هناك فى مكان آخر لا اعرفه - وبين الضوضاء والمرح - جمهور يروح ويغدو وهو يلهو او يقاسى دون ان يفكر فينا او فى حياتنا الخفية للغاية ..

***

وكان اسوأ ما فى الامر بالنسبة الى ، شعورى بان سلسلة من العادات والتقاليد المتوارثة كانت تضيق الخناق على حياتنا كل يوم بقوة اكثر ، وتصبها فى قالب واضح المعالم ، وان شعورنا نفسه كان على وشك ان يستعبد ويخضع لقانون رمننا هذا الجامد الذى يسير دائما على وتيرة واحدة !

وكان علينا فى الصباح ان نكون مرحين ، وان نبدى احترامنا للآخرين اثناء تناول الغداء ، وان نظهر حناننا فى المساء .. وكنت اقول فى نفسى : « ترى هل ما افعله خير ؟ »

اما هو فكان يقول : « ان مايستحق الاعجاب حقا هو ان يفعل المرء الخير وان يعيش شريفا »

وكان الوقت لا يزال متسعا امامنا لنفعل ذلك .. ولكن كانت هناك اشياء اخرى لا اقوى على القيام بها سوى اليوم فحسب ..

ولم يكن ذلك مايلزمنى لمواجهة حالتى النفسية .. وانما كان يلزمنى الكفاح ، وان نكون الشعور مرشدا لى فى الحياه ، لا ان توجه الحياة شعورى . وكنت اتمنى ان اقترب من حافة الهاوية ثم اخاطب سيرج قائلة : « لم يعد امامى غير خطوة واحدة واتردى فى الهاوية .. ولم تبق سوى حركة واحدة واسقط هالكة » . . وكنت اتصور ان وجهه سوف يشحب حينذاك ، وسوف يمسك بى بيديه القويتين ، ثم ينترعنى من الحافة ، ويحملنى معه بعد ذلك الى حيث يشاء ..

وكانت حالتى النفسية هذه تؤثر على صحتى حتى تعبت

اعصابى . وذات صباح ، احسست بأن حالتى اكثر ســـوءا من المعتاد . وعاد سيرج من عند مامور الشرطة بمزاج سيىء للغاية ، ولم يكن هذا يحدث له الا نادرا .. وحينما لاحظت ذلك سألته عن السبب ، ولكنه لم يرد ان يخبرنى بشىء ، واكتفى بأن قال ان الامر لا اهمية له ..

***

وفيما بعد ، علمت ان مامور الشرطة قد استـــدعى طائفة من فلاحينا وطلب منهم شيئا غير مشروع ، ولما لم يقبل زوجى هدده المامور . ولكن زوجى لم يستسلم لهذا التهديد .. وكان يرى أن الامر يدعو الى السخرية ، فلم يشأ ان يحدثنى عنه . ولكن خيـل الى انه لم يشـا ان يخبرنى بشىء لانه كان ينظـر الى كطفلـة لم تنضج بعد النضوج الكافى ..

وابتعدت عنه فى صمت دون ان انطق بكلمة واحدة .. فذهب غاضبا الى غرفة مكتبه ، واغلق على نفسه الباب .. وجلست انا على الاريكة وانا اشعر برغبة فى البكاء ..

ورحت احدث نفسى قائلة : « لماذا يلح فى اذلالى بهدوئه هـذا ؟ ولماذا يعتبر الحق فى جانبه دائما ؟ اليس من حقى ـ بدورى ـ أن أشعر بالضيق والفراغ ، وان اعيش واتحرك والا ابقى دائما فى نفس المكان احيا حياة رتيبة كل مافيها يجرى على وتيرة واحدة ؟ . . اننى أريد أن أسير الى الامام كل يوم ، بل وكل ساعة .. اننى أريد التجديد ، بينما هو يحب ان يبقى فى مكانه وان يبقينى معه ! .. ومع ذلك ، فمن السهل عليه ان يرضينى ! .. فهو ليس فى حاجة الى ان يصحبنى الى المدينة كى يرضينى .. فقط ، يجب عليـه ان يكون مثلى محبا للتغيير والحركة والتجديد ، والا يحاول تحطيم نفسه أو الضغط عليها .. اى يجب ـ بكل بساطة ـ أن يعيش . وهو نفسه ينصحنى بذلك ، ولكنه لايفعله ..

واحســـت بالدموع تملأ عينى ، وبقلبى ينقبض ، وغضبى يزداد

عليه .. ووجدتني اندفع اليه في مكتبه ، فرايته جالسا يكتب . ولما سمع وقع خطواتي ، التفت نحوى وظل ينظر الى لحظة في هدوء وعدم اكتراث ، ثم استانف الكتابة ..

ولم تعجبني نظرته .. وبدلا من اتقدم نحوه ، مكثت الى جوار مكتبه ، وسحبت كتابا واحدث القى نظرة على صفحاته . وحينئذ التفت نحوى من جديد وهو يقول :

ــ كانيا .. انك على غير عادتك

ولم اجب الا بنظرة باردة .. فهز راســه وابتسم في شيء من الخجل ، ولكنني ــ لاول مرة ــ لم اجب على ابتسامته بابتســامة مثلها ، واكتفيت بان قلت اساله :

ــ ماذا كان بك هذا الصباح ؟ لماذا لم تقل لى شيئا ؟

فقال :

ــ انه شيء تافه ! .. مسابقة صغيرة . ومعذلك ، لستاستطيع ان اقص عليك خبرها الآن . لقد بعثوا باثنين من الفلاحين الى المدينة ..

ولكنني قاطعته قائلة :

ــ ولماذا لم تقل لى ذلك حينما سالتك ؟

فقال :

ــ كان من الممكن ان أقول لك حينئذ شيئا سخيفا .. فقدكنت غاضبا ..

ــ كان يجدر بك أن تخبرني بذلك حينئذ ..

ــ لماذا ؟

فقلت اساله بدوري :

ــ ولماذا تعتقد دائما انني لا أستطيع مساعدتك في اى شيء

فوضع قلمه جانبا ثم قال :

ــ لا شيء من هذا القبيل .. فانا لا استطيع ان أعيش بدونك ،

واعتبرك عونا لى فى كل الامور ، بل ولا اعتقد ان شيئا يمكن ان يتم بدونك ..

واطلق ضحكة صغيرة ، ثم عاد يقول :

ـ لقد جئت فى الوقت المناسب تمـــاما ! .. اننى اعيش لك وحدك .. ولا شيء اراه جميلا هنا الا بوجودك ..

فقلت بلهجة اثارت دهشته :

ـ اعرف ذلك .. انك تعتبرنى طفلة يجب ان يعمل الانسان على ترضيتها وتهدئتها .. كلا .. اننى لا اريد هذا الهدوء .. كفانى هـــدوءا ! ..

واندفع يقول مقاطعا ، كما لو كان يخشى أن يبيح لى فرصة لأقول كل شيء :

ـ هب اذن .. فكرى فى المشكلة قليلا واخبرينى برايك ..

فقلت فى شيء من الحدة :

ـ لم اعد أريد ذلك ..

واحسست برغبة فى ان اعكر صفو هدوئه ، على الرغم من اننى كنت أريد أن اسمع منه كل شيء ، واضفت قائلة :

ـ اننى اريد أن اعيش مثلك تماما ، لا أن اعيش على هامش الحياة .. !

وارتسمت على ملامحه امارات عنف والم كبير ، فعدت أقول :

ـ اريد ان اعيش معك على قدم المساواة ..

ولكننى لم أتم كلامى من فرط ما رأيت على وجهه من امارات الاسى ، بينما استطرد يقول بعد لحظة من الصمت :

ـ وفى اى شيء لا تعيشين معى على قدم المساواة ؟ ان مشكلة الفلاحين ومأمور الشرطة تخصنى وحدى وليست من شأنك !

فقلت :

ـ نعم ، ولكن الامر لا يتعلق بهذه المشكلة فحسب ..

فاضاف يقول :

ـ حاولى ان تفهمينى .. اننى اعرف ان الهموم تؤلمى وتؤلمك فى نفس الوقت .. واعرف كذلك اننى احبك ، ولذا أحاول أن ابعد عنك الهموم .. ان حياتى هى حبى لك .. والامور تسير هكذا ، فلا تمنعينى اذن من أن أعيش ..

فقلت دون أن انظر اليه :

ـ انك دائما على حق ..

وكنت أحس بصدمة لأن نفسه كانت صافية وهادئة هذه المرة أيضا ، بينما كانت نفسى تجيش بالغضب وبشعور أقرب الى الندم.

قال :

ـ كاتيا ! ماذا بك ؟ .. ان الامر لا يتعلق بمعرفة الجانب الذى معه الحق ، وانما يتعلق بشىء مختلف تماما .. لماذا تحملين على ؟ .. ارجو الا تجيبى فى الحال . فكرى أولا ثم صارحينى برأيك . انك غاضبة منى ، ولاشك انك محقـة فى ذلك .. ولكن ارجو أن تعرفينى بذنبى ..

وكيف كنت استطيع أن اخبره بكل ما كان يكمن فى قرارة نفسى؟ لقد شعرت باضطراب كبير اذ ادركت أنه تسلل بسرعة الى مايدور فى ذهنى ، ووجدت نفسى أمامه ـ من جديد ـ كطفلة لا تستطيع أن تفعل شيئا الا ويفهمه ..

قلت :

ـ اننى لست ضدك .. فقط اشعر بالضيق واريد الا اتضايق .. ولكن هاتذا تقـول ان الامور ينبغى ان تكون هكذا .. وانت على حق مرة اخرى ..

ونظرت اليه وانا اقول ذلك ، وادركت اننى قد بلغت هدفى ، اذ رأيت صفاءه يختفى والفزع والامل يرتسمان على وجهه ..

وقال يحدثنى من جديد ، وقد بدت فى صوته رنة اضطراب :

ـ كاتيا .. اننا لا نمزح الآن .. ان مصيرنا يتقرر فى هذه اللحظة .. اننى اطلب منك الا تجيبى بشىء وان تنصتى .. لماذا

تعذبيننى هكذا ؟

وقاطعته قائلة فى برود ،وكأننى لست أنا التى أتكلم وانما شيطان يتحدث بفمى :

ـ لاتقل أكثر مما قلت .. انك على حق

فقال بصوت مرتعد :

ـ آه لو كنت تعرفين ما تفعلينه بذلك !

واجهشت بالبكاء ، فشعرت بوطأة الاسى تخف عن قلبى ، وكان سيرج يجلس فى صمت الى جوارى .. كنت مشفقة عليه ، خجلة من نفسى ، حزينة لما فعلت . ولم أكن التفت اليه ، ولكن لابد انه كان ينظر الى فى تلك اللحظة اما بعين الرقة أو القسوة . والتفت كى أراه ، فوجدت عينيه الجميلتين الحنونتين تنظران الى فى امعان وكأنهما تطلبان الصفح . وحينئذ امسكت بيده وانا اقول :

ـ اغفر لى .. لست أدرى أنا نفسى ما كنت اقوله

فقال :

ـ نعم ولكننى اعرف ما كنت تقولين . ان ما قلت هو الحق

فقلت اسـألـه :

ـ ماذا ؟ ماذا تقول ؟

ـ أقول ان علينا أن نذهب الى بطرسبرج ، اذ لم يعد لدينا ما نعمله هنا ..

قلت :

ـ سأفعل ما تريد ..

واحتوانى بين ذراعيه وقبلنى ، ثم قال :

ـ هل تغفرين لى ؟ .. لقد كنت مخطئا فى حقك ..

***

واثناء السهرة عزفت له الموسيقى لمدة طويلة ، وكان يروح فى الغرفة جيئة وذهابا وهو يهمس بشىء ، وكانت هذه عادته . وكثيرا ما كنت اسأله عما يتمتم به ، وحينئذ كان يكرر لى بالضبط ما كان

يهمس به ، وقد بدت عليه امارات تفكير عميق . وفي معظم الاحيان ، كان يهمس بأبيات من الشعر أو بعبارات لا مغزى لها .. ولكنى كنت اتعرف على حالته النفسية من خلال هذه « السحابات »
وقلت اسأله مرة أخرى :
ـ بم تتمتم اليوم ؟
وبعد ان فكر قليلا ، وقف في مكانه ثم أجاب وهو يبتسم ببيتين من شعر « ليرمونتوف » :
ـ هذا المجنون يثير العاصفة ..
متوهما ان العاصفة يمكن ان يسود فيها السلام ..
وفكرت اقول لنفسي : « حقا انه اكثر من رجل .. انه يرى كل شيء ، فكيف لااحبه اذن ؟
ونهضت وامسكت بيده .. واخذت أذرع أرض الغرفة معه وانا ازن خطاي على خطاه ..
وقال وهو يبتسم .
ـ حسنا ! ..
فقلت بدوري :
ـ حسنا ! ..
ولست ادري اى حماس قد غمرنا .. أذ لم يكد ينقضي اسبوعان، حتى كنا قد بلغنا مدينة بطرسبرج قبل الاعياد !!



الفصل السابع

في مدينة بطرسبرج

وجوه جديدة !

كان وصولنا الى مدينة تطرسبرج ، والاسبوع الذى قضيناه فى موسكو ، وزيارتنا لاسرته واسرتى ، والاستقرار فى الشقةالجديدة، ورؤية مدينه جديدة ووجوه جديدة .. كان كل ذلك بالنسبة الينا أشبه بالحلم . نعم ، كانت هذه كلها أشياء مرحة متنوعة .. وكان وجود سيرج وحبه يكسبانها طابعا دافئا مشرقا ، حتى بدت لى حياة الريف الهادئة كشيء بعيد مغمور فى العدم ..

ودهشت كثيرا حينما استقبلنى الجميع ـ اقارب وغرباء ـ برقة ولطف ، بدلا من هـذه الكبرياء المتعالية وذلك البرود الذى كنت أتوقعـه من الطبقة الراقية ، حتى خيل الى ان الجميع لا يفكرون الا فى . واكتشـفت كذلك ان زوجى يعرف كثيرا من شخصيات الطبقة الراقية ، ولم يكن قد حدثنى عن ذلك ابدا . وكثيرا ماكنت أسمعه ينطق بأحكام قاسية على الكثيرين منهم .. وكان هذا يثير دهشتى وغضبى لاننى كنت اجدهم اناسا طيبين للغاية . ولم اكن أستطيع ان أفهم لماذا كان سيرج يعامل هؤلاء الناس فى جفاء ، ولماذا كان يتجنب مخالطة الكثيرين منهم ، رغم أننى كنت أرغب كثيرا فى مخالطتهم . وكان يخيل الى ان من الافضل أن يعرف المرء أناسا من الطبقة الراقية

***

كان سيرج قد قال لى قبل رحيلنا من الريف : « لنفكر قليلا ونرى كيف سنرتب الامور .. اننا هنا نعد من كبار الاثرياء ، وسنكون هناك بعيدين كل البعد عن الثراء . ولذا ينبغى الا نمكث فى المدينة بعد عيد الفصح ، والا نخالط ابنـاء المجتمع الراقى كى لا نقع فى ورطة ماليه .. ولن أرضى من اجلك ..

وكنت قد قاطعته قائلة : « ولماذا نخالط المجتمع الراقى ؟.. يكفى ان نذهب لمشاهدة الاوبرا والمسرحيات والاستماع الى الموسيقى الرفيعة وزيارة الاهل . وقبل عيد الفصح ، نكون قد عدنا الى الريف »

ولكننا ما ان وصلنا الى مدينة بطرسبرج ، حتى كان هذا الكلام الجميل قد طواه النسيان .. لقد دفعت فجاة الى عالم جديد سعيد ، وادارت كل تلك المسرات راسى . وظهرت أمام عينى كثير من الاشياء التى لم تثر اهتمامى من قبل ، حتى اننى انكرت كل ماضى وقلبت كل خططى راسا على عقب ، بقفزة واحدة، ودون ان اعى ذلك !

وكنت أفكر قائلة : « حقا لم يكن اى شىء قبل هذه الفترة الا نوعا من المزاح الذى لا معنى له .. اما الحياة الحقيقية فهى هذه الحياة الجديدة ، وماذا اذن سيكون من امر المستقبل ؟ »

***

لقد اختفت الهموم والاحزان التى كانت تلاحقنى فى الريف ، فجاة وفيما يشبه السحر .. ومن ناحية اخرى اصبح حبى لزوجى اكثر هدوءا ، فضلا عن أن فكرة فتور حبه لى — عما كان فى الماضى — لم تطرا لى على بال . لقد كان يفهم بسرعة كل افكارى، ويقاسمنى كل مشاعرى ، ويحقق جميع رغباتى ..

ولست ادرى اذا كان صفاؤه الذى لا يقوى احد على تعكيره قد اختفى هنا ، ام أن هذا الصفاء لم يعد يثير غضبى كما كان فى الماضى. وكنت اشعر انه هنا يستمتع بوجودى الى جواره بالاضافة الى حبه القديم الذى يكنه لى دائما . وكثيرا ما كان يحدث لى بعد احدى الزيارات — او بعد تعرفى بشخصية جديدة — ان ارتعد خوفا من ان اكون قد ارتكبت حماقة ما او قصرت فى واجبى كربة بيت ، وحينئذ كان يقول : « هيا يا ابنتى ! تشجعى .. لقد كنت رائعة للغاية »

وبعد وصولنا الى بطرسبرج بمدة وجيزة ، كتب خطابا لوالدته، وطلب مني ان اكتب لها شيئا فيه ، ولكنه لم يشأ ان يطلعني على ما كتبه ، فادعيت ان لي الحق في ان اقرأ الخطاب ، وحينئذ تركني افعل ذلك . وكان قد كتب الى والدته يقول : « انك لا تعرفين كاتي حقا ، وانا نفسي لم اعد اعرفها . فمن اين تأتت لها هذه الثقة اللطيفة في نفسها وفي المجتمع الراقي ، وهذا السلوك الرقيق المحبوب ؟.. كل ذلك وهي لم تزل بسيطة وطيبة دائما . ان الكل مسحور بها ولا اكف عن الاعجاب بها بدوري ، وسيزداد حبي لها لهذا السبب »

***

ولقد اثار ذلك في نفسي كثيرا من الراحة والسرور حتى خيل الي ان حبي له قد ازداد أيضا . وكان نجاحي عند جميع معارفنا شيئا لا اتوقعه .. فكانوا يخبرونني بانني قد اعجبت عمي بصفة خاصة ، وبان احدى عماتي تكاد تجن بي من فرط الاعجاب. وكان يحدث لي ان يقول لي احدهم ان مدينة بطرسبرج ليس فيها سيدة مثلي ، بينما تؤكد لي احداهن ان في وسعي ان أصبح بسهولة اشهر سيدة في المجتمع الراقي ..

وكانت هناك ابنة لاحدى خالات زوجي تحبني حبا جما، وتغدق على اكثر انواع الاطراء اثارة لراسي ، وهي سيدة من ارقى سيدات المجتمع تدعى الاميرة « د » .. وحينما اقترحت على هذه السيدة لاول مرة ان اذهب معها الى حفل راقص — وكان هذا امام زوجي — التفت سيرج نحوي وهو يبتسم ابتسامة ماكرة لا تكاد تلحظ ، وسألني عما اذا كنت ارغب في الذهاب الى هناك ، فأومأت براسي علامة الايجاب ، وانا احس بالدم يتدفع غزيرا الى وجهي ... وحينئذ عقب قائلا وهو يضحك في سذاجة :

— انها تبدو كمجرم يعترف برغبته ..!

فقلت وانا ابتسم بدوري :

ــ الم تقل لي اننا لا يجب ان نخالط المجتمع الراقي لانك تكره ذلك ؟

فقال :

ــ اننا سنذهب الى هناك اذ كنت شـديدة الرغبة في ذلك

فقلت :

ــ كلا !.. من الافضل الا نذهب ..

ولكنه عاد يسأل قائلا :

ــ هل انت شديدة الرغبة في ذلك ؟

ولم اجب بشيء ، فاستمر سيرج يقول :

ــ ان من اكثر الامور سوءا في الحياة ان يتشـبه المرء بالمجتمع الراقي .. ولكننا سنذهب الى هناك على اية حال .. نعم ، لا بد ان نذهب الى هناك ..

فقلت :

ــ اصارحك القول بانني ارغب في الذهاب الى هناك اكثر من اى شيء آخر ارغب فيه في هذا العالم

***

وذهبنا الى الحفل .. وهناك غمرني سرور فاق كل حد. وبدا لي في هذا الحفل انني المركز الذي يدور في فلكه كل شيء ، وان هذه القاعة الكبيرة ، التي تسطع فيها الانوار ، خاصة بي وحدي.. وان الموسيقى لا تعرف الا لي ، والجمهور لا يتجمع الا من حولي. كان الجميع ، ابتداء من خادمتي الخاصة حتى الراقصين والشيوخ، يريدون ان يقولوا لي انهم قد فقدوا صوابهم بسببي . وقالت انسة حالة روحي انني لا اشبه النسـاء الاخريات في اي شيء ، وانما انميع بشيء فريد في نوعه ، يذكر المرء ببسـاطة الريف وسـحره . والواقع ان نجـاحي قد اثار غـروري حتى انني صارحت روحي برغبتي في الذهاب مرة اخـرى الى حفلتين او ثـلاث حفلات خلال هـذا الشتاء . واصبحت اقول وانا اغالط ضميري : « وذلك كي

اشبع من هذه الحفلات دمعة واحدة » . ووافق زوجي على ذلك، وكان يأخذني الى هناك اول الامر وهو مسرور بنجاحي ، وكان يتناسى او ينكر ما كان يدعي من قبل أنه مبدأ بالنسبة اليه. ولكنه ما لبث أن بدأ يشعر بالتعب والضيق من هذه الحياة .. ولم يكن ذلك واضحا بما فيه الكفاية ، فكنت لا ادرك سر هذه النظرة اليقظة الجادة التي يوجهها الى أحيانا ..

كنت نشوى بهذا الحب والاعجاب اللذين اثرتهما في نفوس عدد كبير من الغرباء .. وقد اسكرني هذا العبير العبق ، عبير كل جديد ارتشفه هنا لاول مرة ..

وكان تأثير زوجي الروحي الذي يسيطر علي ، ويكتم انفاسي بعض الشيء ، قد تلاشى فجأة . وكان يحلو لي ان ابدو معه وسط هذا المجتمع ونحن على قدم المساواة .. بل وان أشعر انهم يضعونني في مكانة اعلى من مكانته . ولم استطع ان ادرك انه كان ينظر الي ـ وانا اتمتع بهذه الحياة ـ بعين غير راضية . وكنت احس بشعور من الرضا والكبرياء ينبثق في نفسي حين ادخل الى حلبة الرقص وكل الانظار متجهة نحوي ، وحينئذ اراه يتركني لينداس بين الجمهور الذي يرتدي ثياب السهرة السوداء ، فيخيل الى أنه يريد ان يعلن على الملأ حق الملكية الذي يتمتع به على شخصي ، لا انه يريد الهرب مني . فاذا وقع بصري على وجهه المتجهم في مؤخرة القاعة ، قلت في نفسي : « فلينتظر حتى نعود الى المنزل ، وسوف يرى لمن كنت احاول ان أكون لامعة جميلة.. حينئذ سوف يعرف من ذا الذي احبه أكثر من اي مخلوق آخر يحيط بي هنا » . والواقع انني لم اكن فرحة بنجاحي الا من اجله، وايضا لانه كان يضحي من اجلي . ولكن كان هناك شيء يمكن أن يعرضني للخطر ، وهو ان احد الذين كانوا يقابلونني في هذا المجتمع كان مندفعا نحوي ، الامر الذي كان يثير غيرة زوجي . وكان سيرج يثق في كل الثقة، ويبدو هادئا غير مكترث. أما بالنسبة لهؤلاء الشبان ، فقد كانوا جميعا لا قيمة لهم في نظري بالمقارنة الى

زوجي ، حتى ان هـذا الخطر – وهو الخطر الوحيـد الذي كان يبدو لي ان من الممكن ان اواجهه في حيـاة المجتمع الراقي – كان لا يخيفني على الاطلاق ..

وعلى الرغم من ذلك ، كنت احس نـوع من السرور والغبطة بسبب هذا الاهتمام الذي كان يبديه نحوي كثير من الناس ..

وذات مرة قلت لزوجي بعد العودة من احدى الحفلات الراقصة: « لقد لاحظت انك كنت تتحدث بحماس مع السيدة «ن» .. »

قلت ذلك وانا اهدده باصبعي ، وكانت هذه السيدة من اكثر سيدات المجتمع الراقي في مدينة بطرسبرج شهرة ، وكان زوجي قد تحدث معها طويلا بالفعل في تلك الليـلة . والواقع انني كنت اريد بذلك اثارة غبطه ، فقد كان في هذه اللحظة صامتا ومتضايقا بعض الشيء ..

واجابني قائلا – وهو يقطب حاجبيه – كما لو كان يشعر بالم جسماني :

– لماذا تقولين لي مثل هذه الاشياء ؟.. ان مثل هـذا الكلام لا يليق بك وانما بالنسـاء الاخريات .. دعي هذا الحديث يا كاتيا لانه يمكن ان يفسـد الوئام الجميل الذي يسود حياتنا .. ولا زلت آمل أن يعود الوفاق بيننا ..

واخلد لحظة الى الصمت ، ثم أضاف يقول :

– هل يمكن ان يعود هذا الوفاق يا كاتيا ؟

فقلت وانا مقتنعه تماما بما اقول :

– ان هذا الوفاق لم يفسد ، ولن يفسـد ابدا ..

فعاد يقول :

– ليسمع الله منك ذلك .. ولكن .. آن الوقت كي نعود الى الريف

كانت هذه هي الفرصة الوحيدة التي حدثني فيها على هذا النحو وكان يبدو لي ان الامور تسير دائما على خير ما يرام ، وكنت من

ناحيتي مرحة ومسرورة للغاية !

وحينما كنت أرى الضيق باديا على وجهه ، كنت أواسي نفسي بأن أقول انني قد تضايقت من أجله مدة طويلة في الريف . واذا حدث وطرأ بعض التغيير على علاقتنا ، كنت أطمئن نفسي بأن سحر علاقتنا سيعود كاملا حين نصبح مرة أخرى بمفردنا ـ خلال الصيف ـ في منزلنا بنيكولسكي ..

وهكذا انقضى الشتاء دون أن اشعر بمرور الوقت ، وبقينا في مدينة بطرسبرج برغم اننا كنا نعتزم الاسراع بالعودة للريف ..

***

وفي يوم الاحد التالي لعيد الفصح ، كنا نستعد للرحيل بعد أن انتهى زوجي من شراء كل الهدايا والحاجات اللازمة لحياتنا في الريف . وكانت الحقائب معدة .. واصبح زوجي مرة أخرى في أقصى حالات مرحه وسروره ..

وفي هذه اللحظة ، دخلت علينا ابنة خالة زوجي فجأة ، وطلبت منا أن نمد اقامتنا حتى يوم السبت لنتمكن من حضور حفل الكونتيسة «ى» . واخبرتني بأن هذه الكونتيسة سبق أن وجهت الي الدعوة عدة مرات ، وأن الامير «م» الموجود حاليا في بطرسبرج قد اظهر اثناء الحفلة الراقصة الاخيرة رغبة كبيرة في التعرف الى ، وانه سيحضر الى حفل الكونتيسة خصيصا من أجل ذلك ، وانه يقول في كل مكان انني اجمل سيدة في روسيا ، وان كل أهل المدينة يجب أن يذهبوا الى هذا الحفل .. وباختصار ، فانه من غير اللائق الا أذهب الى هذا الحفل !

كان زوجي يقف في الناحية الاخرى من غرفة الجلوس ، وكان يتحدث مع شخص لا أعرفه .. واستمرت ابنة الخالة تقول لي :

ـ هل ستحضرين اذا يا كاتيا ؟

فقلت في تردد وأنا أنظر ناحية زوجي :

ـ لقد كنا نريد أن نعود الى الريف بعد غد ..

والتقت عيناى بعينى زوجى ، فالتفت الى فى حركة عنيفة . وقالت ابنة الخـــالة :

ـ سأقنعه بالبقاء ، وسوف نذهب يوم السبت الى الحفل لندير رءوس الحاضرين .. أليس كذلك ؟

فقلت وقد بدأت استسلم :

ـ ان هذا خليق بأن يربك كل مشروعاتنا ، خاصة وانا انتهيت من اعداد متاعنا ..

وحينئذ قال زوجى من مكانه ، بلهجة غاضبة حاسمة لم أسمعها منه ابدا من قبل :

ـ من الافضل أن نذهب مساء اليوم لتقدم تحيتها واعتذارها للأمير !

وصاحت ابنة الخالة تقول فى سخرية :

ـ ها هو ذا يغار الآن .. انها اول مرة اراه فيها هكذا . انتى لا احثها على ذلك من اجل الامير فحسب يا سيرج ميخايلوفيتش ، انما من اجلنا جميعا .. فهذا هو رأى الكونتيسة « ى » التى سألتكما بدورها رجاءها فى ان تحضرا الحفل ..

فاختتم زوجى حديثه قائلا فى برود :

ـ ان الامر يتعلق بروحتى ..

غادر سيرج الغرفة ، وهو مضطرب اكثر من المعتاد ، وجعلنى هذا أتألم ولا اعطى ردا لابنة الخالة . وحينما رحلت ، لحقت به فوجدته يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ولم يرنى او يسمعنى وانا ادخل على اطراف اصابعى

وقلت فى نفسى وانا انظر اليه : « لا شك انه يتمثل الآن بيت نيكولسكى العزيز ، ويتخيل قهوته التى يتناولها كل صباح فى غرفة الجلوس الباهرة الضوء ، وحقوله وفلاحيه ، وكذا طعام عشائه والسهر بالليل »

***

وصممت فى نفسى على أن اترك كل الحفلات الراقصة ، وجميع

الامراء الموجودين فى الكوب ، كى ارى من جديد مرحه ومداعباته اللطيفه . ورغبت فى ان اخبره باننى لن اذهب الى هـذا الحفـل ، وانه لم تعد لدى اية رغبة فى الذهاب الى هناك . وفى هذه اللحظة ، التفت فجاة الى الوراء .. فلما وقع بصره على قطب جبينه ، وتغير تعبير وجهه الحالم الجميل تماما ، وحل محله تعبير جديد ينم عن حكمه وفهم لمصيبتى ، وهدوء ممتزج بنوع من الحماية . ولم يكن يريد ان يكشف عن طبيعته الانسانية الصميمة ، وكأنه يريد ان يبقى فى نظرى نصف اله ..

التفت الى زوجى ، وقال فى هدوء وعدم اكتراث :

ــ ماذا بك يا صديقتى ؟ ..

ولم أجب .. فقد شعرت بالغضب لانه يخفى ماقى دخيلة نفسه عنى ، ولا يريد ان يبقى فى عينى على طبيعته التى احبها ..

وعاد يسألنى قائلا :

ــ هل تريدين ان تذهبى اذن الى هذا الحفل ؟

فقلت :

ــ لقد كان لدى رغبة فى ذلك ، ولكن يبدو ان الامر لايروق لك

وصمت لحظة ثم اضفت اقول :

ــ فضلا من اننا قد حزمنا كل متاعنا ..

فقال بلهجة باردة لم اسمعها منه قط من قبل :

ــ انى لن ارحل قبل يوم الثلاثاء .. وسآمر بفتح الحقائب .. وبعد ذلك لن نرحل الا حين تشائين ، ويمكنك ان تتفضلى بالذهاب الى الحفل ، اما انا فلن ارحل ..

واخذ يسـير فى الغرفة بخطى مضـطربة .. ودون ان ينظر الى ، وكانت هذه عادته حين يتعرض لأزمة نفسية ..

فقلت له وانا اعترض طريقه ، متابعة اياه بعينى :

ــ لست افهم حقا .. لماذا تحدثنى بهذه اللهجة الغريبة ؟ اننى على استعداد تام لان اضحى من اجلك بهذه المتعة ، ولكن هاتـــذا

تنح على فى الذهاب الى الحفل بسخرية لم اعهدها فيك من قبل !
فقال وهو يضغط على كلماته :
ـ حسنا ! انك تضحين ، وانا اضحى ايضا ، ولا شىء افضل من ذلك ! انه سباق للتضحية .. ويخيل لى ان هذا مايمكن ان نسميه سعادة الاسرة !

***

كانت تلك هى اول مرة اسمع فيها الكلمات تخرج من فمه بمثل هذه القسوة والسخرية .. ولم اتأثر لسخريتـــه ، او اذعر من قسوته ، بل على العكس اثارت قسوته غضبى ، فأردت ان أبادله القسوة بمثلها .. اهذا زوجى الذى كان على الدوام عدوا لدودا لكل حديث جاف فى علاقتنا ، والذى كان دائما صريحا معى ؟ ولماذا يحدثنى بمثل هذه اللهجـــة ؟ الاننى اردت أن اضحى من اجـله بسرورى الذى لا أتصور سرورا اخر يعوقه ؟ الاننى ادركت مبلغ حبى له فى نفس الوقت الذى كانت تراودنى فيه فكرة الذهاب الى الحفل ؟ لقد كان يتهرب من البساطة والصراحة فى الوقت الذى كنت انشدهما ! ..

قلت له وانا أتنهد :
ـ لقد تغيرت كثيراً . . ماذنبى فى نظـرك ؟ انها ليست هــذه الحفلة ، وانما خطأ ما قديم يملأ قلبك بالثـــورة على .. لمـــاذا لا تصارحنى بكل مايعتمل فى قلبك ؟ لقد كنت فيما مضى لا تخشى الصراحة مثلما تخشاها الان .. تكلم بوضوح .. ماذا تحمل فى نفسك صدى ؟

وكنت وانا اقول ذلك استجمع ذكرياتى ، وانا اشعـــر بامتنان دفين فى نفسى ، لانه لم يكن له الحق فى ان يوجه الى اى لوم بالنسبة لهذا الشتاء مهما كان ذلك الذى سيقوله

وتقدمت حتى منتصف الغرفة كى يضطر الى المرور من جوارى ، ونظرت اليه وانا افكر قائلة : « لاشك انه سيقترب منى ويقبلنى ، ثم ينتهى كل شىء »

جالت هذه الفكرة بخاطرى .. وكان مما يحز فى نفسى اننى لم استطع ان ابرهن له على خطئه . ولكنه توقف عن المسير عند طرف الغرفة ، وقال وهو يرمقنى بنظره :

ــ الازلت دائما لاتفهمين ؟

فقلت :

ــ كلا ..

فقال :

ــ ومع ذلك ، فكيف اقول لك هـذا ؟ .. اننى أحس لاول مرة بشاعة ما اشعر به ، ولكننى لا استطيع أن أتجنب ذلك ..

وقطع كلامه ..ويبدو ان الفزع قد اصابه من جراء لهجتـــه المجـــردة من الذوق . وقلت اسأله ودموع الغيظ تكاد تطفر من عينى :

ــ ماذا تريد ان تقول ؟

فقال على الفور :

ــ اننى أحس بالبشاعة والاشمئزاز .. لانك ، بعد أن بجـدك الامير جميلة ، قد ترمين فى الجرى امامه وتنسين نفسك وكرامتك كامرأة . وانت لاتريدين أن تفهمى مايحس به زوجك ، لانك لست فى مكانه ، ولانك لا تشعرين بكرامة نفسك .. بل هناك ما هو أكثر من ذلك بكثير ، فانت تصرحين لروحك بانك تريدين أن تضحى من أجله بنفسك .. وكأنك تقولين له : « ان اكبر سعادة بالنسبة الى هى ان اظفر باعجاب صاحب السـمو ، ولكننى اضحى بذلك من اجلك »

كان كلما تكلم تزداد نبرات صوته عنفا وحماسا ، حتى أصبـح صوته يدوى بسخرية لاذعة وقسوة عنيفة . ولم أكن قد رايته من قبل فى هذه الحال ، بل ولم اكن انتظر قط ان أراه هكذا .. فغلى الدم فى عروقى واحسست بالخوف . ولكننى فى الوقت نفســه شعرت بأن كبريائى قد جرحت واهينت .. وبرغبـة فى الانتقام منه ، قلت :

ـ تكلم .. لقد كنت أنتظر هذا الانفجار منذ وقت طويل ..

واستمر في حديثه قائلا :

ـ لست ادري مدا كنت تنتظرس .. وانا نفسي كنت اتوقع حدوث ماهو اسوأ من ذلك . انني اراك وانت تنغمسين كل يوم في هذا الوحل والفراغ ، وهذا المجتمع السخيف والبذخ ، وكنت اتوقع .. كنت اتوقع اليوم ما يملأ نفسي بالخجل ويشعرني بألم لم اعرف مثله قط من قبل .. خجل من نفسي حين احدث صديقتك تعتش في قلبي بيديها الملطخين بالوحل وتتحدث عن غيرتي .. غيرتي ممن ؟ من رجل لا اعرفه انا ولا تعرفينه انت ؟ وانت .. انك لاتريدين أن تفهمي ، وكأنك قد صممت على ذلك .. بمن تريدين أن تضحي من أجلي ؟ يا الهي العظيم ! . الخجل لك .. الخجل لانحطاط نفسك !

وأخذ يكرر قائلا : « تضحين من اجلي ! تضحين من أجلي .. !»

وفكرت في نفسي قائلة : « آه ! هـذه اذن سلطة الزوج ! .. انه يذل ويهين زوجته التي ترتكب اى ذنب في هذه الدنيا .. هذه حقوق الزوج .. ولكنني لن أخضع لهذا ابدا »

وقلت له بصوت مرتفع ، وانا احس بفتحتي انفي تزدادان اتساعا وبالدماء تهرب من وجهي :

ـ كلا .. انني لا اضحي بشيء من أجلك . وسـوف اذهب يوم السبت الى الحفل .. نعم ، سأذهب الى هناك بكل تأكيد ..

فصاح يقول في غضب لم يعد يستطيع أن يكبته :

ـ ليمنحك الله متعة كبيرة ! .. ولكن كل شيء قد انتهى بيننا .. وأرجو على الاقل الا تعذبيني طويلا .. لقد كنت محبوبا !.

كانت شفتاه ترتعدان ، وكان يبذل مجهودا كبيرا لكي يسيطر على اعصابه ، ولكيلا يندفع اكثـر من ذلك في اقواله . وكنت في هذه اللحظة اخاف منه واكرهه ، ووددت لو اقول له بدوري كثيرا من الاشياء ، وانتقم لنفسي من اهاناته ، ولكنني كنت اعرف اني

اذا فتحت فمي لي اقوى على ايقاف دموعي فتضيع كرامتي !..

وغادرت الغرفة في سكون .. ولكنني ماكدت ابتعد بضع خطوات حتى استولى على ذعر مفاجيء لما حدث .. استبشعت ان تتحطم هذه الرابطة التي تتوقف عليها سعـــادتي ، وفكرت في ان اعود ادراجي ، ولكن اتراه قد هدأ بما يكفي لان امد له يدي وانظر اليه ؟ وهل يدرك مقدار كرمي معه ؟ وماذا يحدث لو ظن انني اخفى شيئا وراء الى الصريح لما حدث ؟ الم يصفح عني بهـــــدوء اقرب الى الكبرياء ؟ ولماذا اهانني الى هذه الدرجة ، وهـو الذى قد احببته كل الحب ؟

ولم اذهب اليه .. وانما ذهبت الى غرفتي ، وبقيت فيها فترة طويله ابكي واتذكر في رعب كل كلمة من هذا الحـــديث الاخير ، واضع مكانها في ذهني كلمة اخرى او اضيف اليها كلمة افضل .. وفجأة ، تذكرت ماحدث تسا في فزع ينطوي على احساسي بالاهانة

***

وفي المساء ، حينما التقيت بروحي في حضور « س » وانا اعد الشاي ، ادركت ان هوة قد انفتحت بيننا بسبب ماحدث .. ولما سألني « س » متى نسافر ، لم استطع الرد عليه ، واجابه زوجي قائلا :

ـ يوم الثلاثاء .. اننا سنذهب الى حفل الكونتيسة « ر »

ثم التفت نحوي وقال :

ـ انك ستذهبين الى هذا الحفل بغير شك ..

ونظرت الى زوجي في خجل ، وقد ذعرت للهجة صوته التي كانت تبدو غريبة بعض الشيء ، فوجدت عينيه تنظران الى في مزيج من المكر والسخرية ..

قلت :

ـ نعم ..

وحينما اصبحنا بمفردنا من جديد في المساء ، اقترب زوجي مني

ومد الي يده وهو يقول :

ــ ارجو أن تنسي ماقلت لك ..

وامسكت بيده .. ومرت على وجهي ابتسامة سريعة مرتعدة ، وكادت الدموع تنهمر من عيني .. ولكنــه اعاد يده كمـا لو كان يخشى حدوث مشهد عاطفي بيننا ، وجلس في مقعد كبير يبعد عني بمسافة كافية ..

وقلت في نفسي : « اتراه لايزال يعتقد ان الحق في جانبه ؟ »

وفجأة ، قال يخاطبني :

ــ يجب أن تكتب لوالدتي لنخبرها باننا قد اجلنا سفرنا ، والا تسرب القلق الى نفسها ..

فقلت اسأله :

ــ ومتى تعتزم السفر ؟

فقال :

ــ يوم الثلاثاء .. بعد الحفل

فقلت وانا انظر الى عينيه :

ــ اتقسم الا يكون هذا التاجيل بسببي ؟

ولكنه اكتفى بان نظر الي ولم يقل شيئـا .. ثم بدا وكان قوة سحرية تجذب عينيه بعيدا عني .. وخيل الي ان وجهه قد شاع فجأة واصبح كريها ..

***

وذهبنا الى الحفل ، وكانت علاقتنا قد اكتسبت مرة اخـرى طابعا وديا ظاهريا ، ولكنها كانت في الواقع علاقة تختلف تماما عما كانت عليه في الماضي ..

وفي الحفل ، اقترب مني الامير بينما كنت جالسة وسط جمع من النساء ، فاضطررت للوقوف لاتحدث معه .. ولما فعلت ، اخذت عيناي تبحثان عن زوجي بطريقة لا ارادية ، فرأيته ينظر الي من الطرف الاخر من القاعة ثم يشيح بوجهه .!

وفجأة ، استولى على خجل والم كبيران جعلاني اشعر باضطراب شديد ، حتى تصاعدت الحمرة الى وجهي لنظـرات الامير .. ولكنني اضطررت الى البقاء في مكاني ، والانصات الى مايقوله وهو يفحصني من قمة راسي الى اخمص قدمي . ولم يكن حديثا طويلا.. ولم يكن هناك مكان خال حتى يستطيع الجـلوس الى جواري ، ولابد انه قد أحس بأنني لا اشعر بارتياح لحديث معـه . وكان حديثنا عن آخر حفل راقص ، وعن المكان الذى أمضى فيه فصـل الصيف ، واشياء اخرى ..

وتركني الامير وهو يبدي رغبته في التعرف بزوجي .. ورايتهما بعد ذلك يقفان معا ويتحدثان في الطرف الآخر من القاعة ، ويبدو أن الامير كان يخبره بشيء عني لانني رايته يبتسم اثناء الحـديث وينظر ناحيتي ، وحينئذ احمر وجه زوجي ، فحيا الامير في أدب جم وانصرف .. واحمر وجهي أيضا ، وخجلت من الفـكرة التى كونها الامير عني وعن زوجي بصفة خاصة . ويبدو ان الجميع قد لاحظوا حيرتي وخجلي اثناء حديثي مع الامـير ، وكذلك تصرفه الغريب . وكنت أقول في نفسي : « يعلم الله ماسيدور في خلدهم .. ترى هل يعرفون امر المناقشة الحامية التى حـدثت بيني وبين زوجي ؟ »

***

وبعد انتهاء الحفل ، صحبتني ابنة خالة زوجي الى المنـزل ، وتحدثنا معا في الطريق .. ولم استطع ان امنع نفسي من ان اقول لها كل الذي حدث بيننا بمناسـبة هذا الحفل ، فطمأنتني واخبرتني أن ما حدث من قبيل تلك المشاجرات الكثيرة التى لامعنى لها ، والتى لاتخلف اي اثر في العلاقة بين زوجين متحابين .. وشرحت لي شخصية زوجي كما تفهمها ، وقالت انها تجده انسانا متكبرا غير اجتماعي . فوافقتها على ذلك ، وانا أحس بأنني قد اصبحت اكثر فهما لشخصيته !

وحينما اصبحت بعد ذلك وجها لوجه مع زوجي ، شعـرت

بأن هذا الحكم الذى أصدرته عليه جرم حقيقى ثقيـل الوطأة على نفسى ، كما شعرت بأن الهوة بيننا أخذت تزداد اتساعا وعمقا ..!

وتغيرت حياتنا منذ ذلك اليوم ، وكذلك علاقتنا المتبادلة ، تغيرا تاما .. فلم يعد انفرادنا معا يبدو لنا جميلا كما كان من قبل .. وكانت هناك موضوعات نتجنب الخوض فيها ، وكان من الاسهل ـ بالنسـبة الينا ـ أن نتبادل الحديث فى وجـود شخص غريب ، فى حين اننا نجد صعوبة فى ذلك حين نكون وجها لوجه . وحينما كانت ترد فى الحديث اية اشارة عن حياة الريف او حفل راقص ، كانت نار تعمى بصيرتنا فنشعر بالاضطراب لمجرد أن ينظر كل منا الى الاخر ، وكان كل منا يفهم النقطة الحساســـة التى تفرق بيننا ويخشى الاقتراب منها ! ..

وكنت مقتنعة بأن زوجى رجل متكبر ومتهور ، وبأن من واجبى أن أكون على حذر حتى لا أصطدم بمواطن الضعف فيــه فأسبب ثورته . ومن ناحيته كان مقتنعا كذلك بأننى لا استطيــع العيش بعيدا عن حياة المجتمع الراقى ، وبأن حياة الريف لم تعد تروق لى ، وبأنه يجب أن يخضع لهذا الميل « الشرير » فى طبيعتى ..

ولذا كان كل منا يعمل من ناحيته على تجنب اى حديث مباشر فى مثل هذه الموضوعات ، وكان كل منا يحكم على صاحبـه حكما خاطئا كل الخطأ .!

وانتهى بنا الحال الى أن أصبح كل منا لاينظر الى صاحبه على انه مثال الكمال فى هذا العالم ، بل على العكس كان كل منا يعقد كثيرا من المقارنات ليقارن فيها ـ فيما بينه وبين نفســه ـ بين شخصية وطابع صاحبه ، وشخصية وطابع الاخرين !



الفصل الثامن

العودة إلى الريف

حادثان مفاجئان

كنت متعبة جدا قبل رحيلنا .. وبدلا من ان نذهب الى «الريف» اقمنا باحدى « الفيلات » ، ومن هناك سافر زوجي ليرى والدته . وكانت صحتي قد تحسنت وقت رحيله الى حد كان يمكنني من مرافقته ، ولكنه خشي على البقاء وكأنما كان يخشى ان تتأثر صحتي من جراء السفر . وفهمت انه لم يكن يخشى على صحتي ، وانما كان في الواقع مقتنعا بأنه لا يحسن منا ان نكون في الريف ، فلم الح عليه كثيرا وبقيت ..

والواقع انى شعرت وانا اعيش بدونه بالغربة والفراغ ..ولكنه حينما عاد ، لاحظت ان وجوده لم يعد يضيف الى حياتى شيئا كما كان يحدث من قبل . وكانت تلك العلاقات السابقة التى لم أحدثه عنها تجثم على صدرى فتكتم انفاسى كالجرائم ، كما كانت تسيطر على كل أفكارى ومشاعرى ، فى حين كنت كل افعاله وكلماته نموذجا للكمال ..

وكانت العلاقات بيننا قد تحولت ــ بصورة واضحة ــ الى علاقات اخرى تختلف تماما عن علاقات الحب المثالى التى كانت تربطنا من قبل .. ولم نكن من جانبنا نلاحظ هـذا التحول الكلى . ومنـذ ذلك الحين ، اصبحت لكل منا مشاغل ومصالح لم نعد نحاول ان نشترك فيها ، بل ولم نعد نحس بأى اضطراب لان كلا منا اصبح يعيش فى عالم بعيد وغريب عن عالم الآخر ، فقد اعتدنا هذه الحال .. ولم تلبث الحيرة ــ بعد مضى عام ــ ان تلاشت من قلب كل منا وهو ينظر الى الآخر

وكانت فترات المرح عند سيرج ، وأفعاله الصبيانية ، قد اختفت

كذلك .. وتلاشى ايضا هذا التسامح الذى لا يعبأ بشىء ، والذى كان يثيرنى فيما مضى ، كما تلاشت نظـــرته العميقة التى كانت تشعرنى بالفزع والاضطراب فى آن واحد . ولم نعد نصلى معا أو نشارك بعضنا الحماس مثلما كنا نفعل من قبل ، واصبح كلٌ منا لا يرى الآخر الا نادرا . وكان سمير يخرج دائما لقضاء شئونه ، ومن ناحيتى لم اعد اخاف أو اشكو من بقائى بمفردى ، وكنت اندفع على الدوام تجاه العلاقات الاجتماعية دون ان احس بحاجة الى أن اظهر فى المجتمع برفقة زوجى .. !

***

ولم يحدث بيننا قط اى شجار أو جدل عنيف .. وكنت ابذل جهدى لارضائه ، وكان من ناحيته يبعد كل رغباتى ، وكان يبدو أن كلا منا لا يزال يحب الاخر . وحينما كنا نلتقى معا بمفردنا ــ ولم يكن هذا يحدث الا نادرا ــ كنت لا احس وأنا بجواره بأى سرور او اضطراب .. وكأنى اجلس بمفردى . ولم يكن يخامرنى عن أن ذلك الذى يجلس معى ليس شخصا عاديا ، ولكنه رجل ممتاز للغاية .. وكنت مقتنعة بأنى اعرف مقدما كل ما سيقوله او يفعله ، وحينما كان يفكر أو يتصرف خلافا لما اتوقع ، كنت ارى بكل بساطة أنه أخطأ .. ولكننى لم اكن انتظر اى شىء من ناحيته. وقصارى القول كان زوجى ، ولا شىء أكثر من ذلك .. وكان يبدو لى ان الامور هى هكذا .. وينبغى أن تكون هكذا ، وانه لم توجد ولا يمكن ان توجد بيننا علاقات أخرى .. !

وحينما كان يتغيب ، كنت أشعر مع ذلك بعزلة هائلة ــ خاصة فى الايام الاولى من زواجنا ــ وكنت احس وهو بعيد عنى بقيمته كسند لى ، فارتمى فى فرح على صدره حينما يعود ، ولـــكن لم تكن تنقضى ســاعتان ، حتى كنت انسى هذا السرور ولا اجــــد شيئا أقوله ..

وفى اللحظات القصيرة التى كان يبقى فيها بيننا جنان هادىء،

كان يخيل الي ان هذا ليس هو الحب الذى كان يملأ كل قلبى ، وكنت أقرأ نفس الاحاسيس فى عينيه . ولكننـــا لم تكن تريد أن تتخطى هذا الحد ، الامر الذى كان يشـعرنى احيـانا بشيء من الحزن .. وعلى اية حال ، لم يكن لدى الوقت الكافى للتفكير جديا فى شيء ، وكنت اجتهد فى أن انسى احزانى بان انغمس فى تسليات متنوعة !

وسرعان ما اصبحت حياة المجتمع تسيطر على كل ميولى ، بل صارت عادة تستعبدنى وتشغل من قلبى كل المكان الذى كان مخصصا للحب . ولذا كنت اتجنب دائما ان ابقى بمفردى خوفا من أن اتعمق فى تاملاتى لحالتى . وكان وقتى كله مشغولا منـــذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل . ولم يعد هذا الوقت ملكا لى اتصرف فيه كما اشاء ، حتى ولو اردت البقاء فى البيت . ولم أكن اجد فى بقائى اى سرور او مضايقة .. وبدا لى ان الامور لا بد ان تكون هكذا دائما !

***

وانقضت ثلاث سنوات على هـذا المنوال ، ظلت خلالها علاقتنا جامدة فاترة .. وكأنما لا يمكن ان تتحسن او تسوء أكثر من ذلك. ووقع خلال هذه الاعوام الثلاثة حدثان مفجعان فى حياتنا العائلية، ولكنهما لم يحدثا اى تغيير فى حياتى .. !

اما هذان الحدثان ، فهما ميـلاد أول طفـــل لى ووفاة تاتيانا سيمينوفنا . واثناء الايام الاولى ، عمر قلبى شعور عنيف بالامومة، وخيل الى لفرط اندفاعه وتملكه لقلبى انني على وشك ان ابدأ حياة جديدة . ولكننى ما أن بدأت اخرج من جديد بعد شهرين ، حتى اخذ هذا الشعور يقل شيئا فشيئا حتى تحول الى «عادة» !

وعلى العكس عاد زوجى ، منذ ولادة هذا الابن ، رجل الزمان الماضى .. هذا الرجل اللطيف الذى يمكث دائما فى البيت ، وكان واضحا انه قد حول كل حنانه ومرحه السابقين الى ولده . وحينما

كنت ادخل الى غرفة الطفل كي اقبله قبلة المساء ـ وانا لا ازال ارتدى ثوب السهرة ـ كنت كثيرا ما اجد زوجي جالسا فى الغرفة، وكنت الاحظ نظرة اللوم القاسية التى يوجهها الى ، وحينئذ كان يعتريني خجل مفاجيء . واحيانا ، كان عدم اهتمامى بالطفل يسبب لى ذعرا ، وكثيرا ماكنت اسال نفسى قائلة : « ترى ، هل قدر لى ان اكون أسوأ من نفسة النساء ؟ » . ولكننى كنت اعود فاجيب على نفسى بقولي : « ولكن .. مـاذا أفعل لتفـادى ذلك ؟ »

وكنت احب طفلى حقا ، غير انى لم اكن أستطيع ان اظل جالسة الى جواره اياما باسرها ، فقد كان هذا خليقا بان يشعرنى بالضيق .. ولم اكن أرضى التصنع لنفسي بحال من الاحوال !

وسبب موت والدة سيرج له حزنا كبيرا .. وبرغم انى كنت اشاركه أحزانه ، الا أننى كنت أفضل الآن أن اعيش فى راحة بالريف . وكنا قد امضينا الجانب الاكبر من هذه السنوات الثلاث فى المدينة ، ولم اذهب خلالها الى الريف سوى مرة واحدة لمدة شهرين . وحدث خلال السنة الثالثة أن سافرنا الى الخارج حيث امضينا الصيف فى مدينة اشتهرت بمياهها المعدنية ..

***

كنت حينئذ فى الحادية والعشرين من عمرى .. وكان يخيل الى ان ثروتنا فى أوج ازدهارها ، وان جميع من اعرفهم يحبوننى . وكنت اتمتع بصحة جيدة ، وأرتدي ثيابا من احدث طراز فى مدينة المياه المعدنية هذه ، كما كنت اعرف إننى جميلة .. وكان الجو بديعا وكل شيء يبدو مرحا من حولى . ومع ذلك لم اكن اشعر بأنى سعيدة مثلما كنت وانا فى بيت نيكولسكى ، وقت أن كانت سعادتى كامنة فى نفسى لاننى أستحق السعادة . كانت حالتى النفسية قد تعرضت لتيارات مختلفة ، ولكن هذا الصيف كان طيبا . ولم يكن هناك ما اشتهيه ، أو آمل فيه ، او اخشاه ..

لقد كانت حياتي فى أوجها ، وكان ضميري مرتاحا ..

ولم أجد من بين الشبان اللامعين فى مدينة المياه المعدنية هذه واحدا يمتاز فى شيء عن الآخرين ، ولا حتى ذلك الامير المجور له ... سميرنا الذى كان يغازلنى قليلا . كانوا أما حديثى السن أكثر من اللازم ، وأما كبار السن لغاية . وكان هناك رجل انجليزى ذو شعر اشقر ، وآخر فرنسى ذو لحية .. وكنت لا ابدى أى اهتمام بأحد ، وفى الوقت نفسه لم أكن استغنى عنهم .. فقد كانوا بوجوههم الخالية من التعبير جزءا لا يتجزأ من جو هذه الحياة الانيقة التى كنت منغمسة فيها ..!

ومع ذلك ، لفت احدهم انتباهى اكثر من الاخرين بالطريقة الحزينة التى عبر بها امامى من الحماس الذى اثيره فى نفسه . وكان هذا هو الماركيز د ... الايطالى الحسسية . وكان لا يدع فرصة للالتقاء بى تفلت منه .. فكنا نمتطى الجياد ونذهب الى الملهى ، وكثيرا ما كان يقول لى اننى جميلة . وأحيانا كنت أراه من نافذتى وهو يحوم حول منزلنا ، وكثيرا ما احمرت وجنتاى خجلا منه ، فكنت دائما اشيح عنه بوجهى لانه كان يثبت فى بصره على الدوام ، ولم يكن هذا يروقنى ..

كان صغير السن انيقا وسيما .. وكان يشبه زوجى فى ابتسامته وتعبير محياه ، ولكنه كان اجمل من زوجى بكثير . وكان هذا الشبه يدهشنى ، بيد انه كانت هناك فروق بينهما فى الشخصية ، وفى الفم ، والنظرة والذقن المستطيلة . وكان مظهر زوجى يعبر عن طيبة وهدوء عجيبين .. وكان هذا يكسبه سحرا مثاليا ، بينما كان فى هذا الشاب شيء ما بدائى وحيوانى !

***

وخطر ببالى أن هذا الشاب الايطالى يحبنى حبا جما ، ومن ناحيتى كنت أفكر فيه احيانا بمزيج من الفخر والعطف . وحينما حاولت أن اهدىء من انفعاله ، وان أجعله يقف عند حد الثقة

والود المتبادل ، لفظ محاولتي واستمر يثير الاضطراب في نفسي ، برغم كراهيتي لذلك .. وظلت عواطفه تهدد بالانفجار في أية لحظة !

وكنت أخشى هذا الرجل على الرغم من انني لم اعترف بذلك لنفسي ، وكثيرا ماكنت افاجيء نفسي وانا افكر فيه . وكان روحي قد تعرف به ، ونشأت بينهما صداقة حميمة اكثر من صداقة سيرج لمعارفنا الاخرين ، الذين كان يفضل ان يبدو امامهم بمظهر روح بارد متعال !

وأصبحت بمرض في نهاية موسم الاصطياف ، ولم اغادر المنزل طيلة اسبوعين .. وحينما خرجت ليلا – لاول مرة – بعد مرضي للاستماع الى شيء من الموسيقى ، علمت ان سيدة تدعى ليدى « س » قد جاءت الى المصيف . وكان الناس ينتظرون قدومها منذ مدة طويلة ، وكانت مشهورة بجمالها الرائع

والتف من حولي جمع من الناس استقبلوني بسرور .. ولكن حشدا اكبر التف حول ليدى « س » التي كانت قد سبقتني الى المكان ببضع لحظات . وكان الناس من حولي لا يتحدثون الا عنها وعن جمالها . وحينما رايتها وجدتها جذابة حقا ، ولكنني احسست نحوها باشمئزار بسبب تعاليها واعتدادها بنفسها . وصارحت معارفي بهذا الشعور . وعلى اية حال ، كان مما جعلني اشعر بالضيق في ذلك اليوم ان كل الناس كانوا مرحين للغاية . وفي اليوم التالي ، رتبت ليدى « س » .. رحلة الى القصر ، ولكنني رفضت الاشتراك فيها . ولما خرج الجميع في هذه الرحلة وبقيت بمفردي ، بدا لي كل الرجال تافهين وسخفاء ، واحسست برغبة في البكاء وفي انهاء اقامتي بالمدينة والعودة الى روسيا باسرع مايمكن !

كان شعور جارح قد تسرب الى نفسي ، ولكنني لم اكن اريد الاعتراف بذلك .. وادعيت انني اشعر بتوعك ، وامتنعت عن

الظهور فى حفلات المجتمع الراقى . ولم اكن احـــرج الا نادرا ، وكنت حينما افعل أخرج صباحا وبمفردى كي اشرب شيئا من المياه المعدنية ، أو أذهب لزيارة الضـــواحي فى رفقـــة السـيدة « ل . م » وهى احدى معارفى الروسيات . ولم تكن زوجى معى فى هذه الفترة .. اذ كان قد ذهب منذ عـــدة ايام الى مدينـــة هايدلبرج حيث كان ينتظر انتهاء فترة استشفائى بالميــاه المعدنية كي يعود بعد ذلك الى روسيا ، ولم يكن يأتى لرؤيتى الا من حين لآخر !

***

وذات يوم ، جرت ليدي «س» خلفها كل المجتمع الراقى الى حفل ، واتفقت مع السيدة « ل.م» على أن نذهــبما الى الحفل.. وسارت عربتنا التى تجرها الجياد فى الطريق الكثير المنحنيات بين صفوف أشجار الكستـــناء العتيقة ، التى يستطيع المرء من خلالها ان يلمح ضواحي مدينة بادن الساهرة .. كان ذلك عند غـروب الشمس ، وكنا نتحدث بجد ، الامر الذى لم يحدث بيننـــا من قبل ..

لقد كنت أعرف السيدة « ل . م » منذ مدة طويلة .. ولكنها بدت فى ذلك اليوم جميلة خفيفة الظل يستطيع المرء ان يحدثها فى أى شيء .. ودار الحديث بيننا عن حياة الاسرة والاولاد ، وتلك الحياة الفارغة التى نحياها فى المصيف ، وابدينا رغبتنا فى ان نلتقى فى ريف روسيا . وحينئذ غمر نفسى مجأة شعور بالحنين والحزن لم اعرف له سببـــا . واخيرا وصلنا الى قصر ليدى « س » ونحن واقعتان تحت تأثير هذه المشاعر الجادة

كانت الظلال والرطوبة تسودان خلف جدران هــذا القصر ، وكانت أشعة الشمس ـ قبــل الغــروب ـ لا تزال تداعب قمم الاطلال ، وكان وقع خطانا يتردد صداه تحت القباب . وظهرت من خلال الباب المفتوح المناظر الطبيعية لمنطقة بادن ، فبدت كلوحة

داخل اطار .. ولكنها كانت مع ذلك مناظر باردة فى نظرنا نحن الروس

***

وجلسنا نستريح ، واخذنا نتأمل غروب الشمس فى صمت . وفجأة ، تناهت الى أسماعنا أصوات واضحة ، وخيل الى أن شخصا يذكر اسم عائلتى . وارهفت السمع فالتقطت اذناى بعض الكلمات بطريقة لا ارادية .. كانت اصوات أعرف صاحبيها : الماركيز د ... وصديقه الفرنسى الذى كنت اعرفه كذلك . كانا يتحدثان عنى وعن ليدى س .. وكان الفرنسى يقارن بينى وبينها، ويحلل جمال كل واحدة منا . ولم يذكر أى شىء يخدش المشاعر ، ومع ذلك علت الدماء فى عروقى حينما سمعت كلماته . كان يشرح بالتفصيل مايراه جميلا ، سواء فى أم فى ليدى س . وبالنسبة الى ، ذكر اننى سبق ان انجبت طفلا ، اما بالنسبة الى ليدى س فهى لا تزال فى التاسعة عشرة من عمرها . وكان يرى أن ضفائر شعرى أكثر جمالا من ضفائر الليدى س .. ولكن شعر الليدى اكثر رقة . وذكر ايضا أن ليدى س من زهرات المجتمع المعروفات، اما انا فمن هذا النوع من الاميرات الروسيات الصغيرات اللاتى يحضرن كثيرا الى مدن المياه المعدنية حبا فى الظهور . واختتم الفرنسى حديثه قائلا عنى انى حسنا فعلت بعدم دخولى فى منافسة مع الليدى ، والا لكنت لاقيت حتفى فى مدينة بادن .. !

وهنا أجابه الايطالى قائلا :

ـ ان هذا خليق بان يحزننى حقا ...

فقال له الفرنسى ، وهو يطلق ضحكة مرحة قاسية :

ـ الا اذا كانت ترغب فى مواساة نفسها بصحبتك ..!

فقال الايطالى بلهجة جافة :

ـ سوف أتبعها اذا رحلت ..

فاجابه الفرنسى قائلا فى سخرية :

ـ يالك من انسان سعيد الحظ ! اذن ، فانت تستطيع أن تقع فى الحب !

فقال الايطالى فى دهشة :

ـ أستطيع ان احب ؟!

واخلد الى الصمت لحظة ، ثم أضاف يقول :

ـ يمكنك بالاحرى أن تقول عنى اننى لا استطيع ان اعيش بغير حبه .. ان افضل شىء فى الحياة هو ان يجعل المرء من حياته قصة . قصتى لن تتوقف ابدا عند منتصفها ، لاننى ازمع السير فيها حتى النهاية ، تماما كما سبق أن سرت فى قصصى الاخرى..

واخيرا قال الفرنسى :

ـ أتمنى لك حظا سعيدا ياصديقى ..

ولم أستطع ان اسمع أكثر من ذلك ، لانهما انسلا خلف احد الجدران واخذا ينزلان الدرج . وبعد بضع دقائق ، وبينما كانا يخرجان من أحد الابواب الجانبية ، وقع بصرهما علينا فبدت على وجهيهما امارات دهشة شديدة . وصعدت الدماء الى وجهى حينما اقترب منى الماركيز « د » واستولى على الذعر حينما رأيته يقدم لى ذراعه ونحن نخرج من القصر ، ولكننى لم استطع ان أرفضها .. واخذنا نسير خلف السيدة ل . م التى كانت تسير فى رفقة صديق الماركيز ..

واتجهنا نحو العربة .. وكنت اشعر بالاهانة بسبب ماذكره عنى الفرنسى . ومع ذلك اعترفت بينى وبين نفسى انه لم يعمل أكثر من التعبير عما كنت اشعر به فى دخيلتى . اما كلمات الماركيز العظة ، فقد كانت تثير فى نفسى شعورا عنيفا بالثورة والخجل !

وكانت تعذبنى فكرة أننى استمعت الى هذه الكلمات ، ولكننى لم أعد اشعر فى الوقت نفسه باى خوف منه .. بل على العكس كنت احس باشمئزاز وهو يسير الى جوارى ، ولم اكن أنظر اليه او اجيب على حديثه ، وانما حاولت جهدى ان اسير مباشرة خلف

صديقتي والفرنسي . وكان الماركيز يحدثني عن جمال الطبيعة ، وعن سعادته بهذا اللقاء غير المنتظر ، وعن أشياء أخرى كثيرة لا أذكرها لانني لم اكن انصت اليه ..

***

وكنت أثناء ذلك أفكر في زوجي وابني ، وكانت تتنازع نفسي مشاعر متشابكة هي مزيج من الخجل والاشفاق والرغبة في ان أعود سريعا الى غرفتي المنعزلة في فندق بادن ، حتى أستطيع ان افكر بحرية فيما كان يدور في نفسي . ولكن صديقتي كانت تسير عني مهل ، وكانت لا تزال أمامنا مسافة طويلة للوصول الى العربة ، وشعرت بأن الماركيز بطيء في السير عن عمد محاولا أن يبقى معي بمفرده ، فأخذت اردد في نفسي قائلة : « كلا .. هذا شيء لا يمكن ان يحدث » . وقررت ان أسرع الخطى ، ولكنه منعني من ذلك بأن أخذ يجذب ذراعي الى ذراعه بطريقة واضحة . وفي هذه اللحظة ، انعطفت صديقتي – مع منحنى بالطريق – فأصبحت معه بمفردي ، وتملكني خوف شديد ..

قلت له في لهجة باردة :

– دعني من فضلك ..

وأردت ان اجذب ذراعي ، فاشتبك طرف كمي المصنوع من الدانتيلا بأحد أزرار سترته . وحينئذ انحنى نحوي وأخذ يخلي سبيل الكم ، فلمست أصابعه ذراعي العارية ..

لم اكن احس بفزع أو سرور .. وأثار هذا الشعور قشعريرة باردة احسست بها تجري في ظهري ، ونظرت اليه وانا احاول ان اجعل نظرتي الباردة تعبر له عن مدى احتقاري ، ولكن يبدو ان هذه النظرة لم تعبر عن الاحتقار بقدر ماكانت تعبر عن الذعر والاضطراب

كانت عيناه المشتعلتان تحدقان في وجهي .. وكانت يداه تمسكان بمعصمي ، وتمتمت شفتاه تقولان انه يحبني ، وانني كل

شيء بالنسبة اليه . واخذت يداه تضغطان على بقوة اكثر ، فاحسست بالنار تسري في عروقي . واظلمت عيناي ، وارتعد جسمي ، وجفت في حلقي الكلمات التي كنت اوشك ان انطق بها لاوقفه عند حده ..

وفجأة ، شعرت بقبلة تطبع على وجنتي .. فمكثت جامدة في مكاني انظر اليه وقد تثلج بدني دون ان تكون لدى القوة كي اتكلم أو أقدم على تصرف . كان الفزع يشلني ، فبقيت واقفة لا ادري ماذا ينبغي ان أعمل ..

***

حدث كل ذلك في لحظة واحدة .. ولكنها كانت لحظة رهيبة ! لقد رأيته في هذه اللحظة ـ على حقيقته ـ واستطعت ان احلل وجهه نظرة واحده ، وكذلك ان استشف مايدور خلف جبينه القصير المنخفض . وامعنت النظر في انفه المستقيم ذي الفتحتين المتفتحتين ، وشاربه ، ودقنه التي حلقت بعناية ، وكذلك رقبته التي لوحتها أشعة الشمس . لقد كنت احتقره واخشاه .. انه كان شخصا غريبا عني ، ومع ذلك كان حب هذا الرجل الذي اكرهه يدوي في نفسي دويا عنيفا !

وتمتم يقول بصوته الذي يشبه صوت زوجي :

ـ انني احبك ..

وفجأة .. قفزت الى ذاكرتي صورة زوجي وولدي ، كأنهما شخصان عزيزان كنت اعرفهما فيما مضى ، وانتهى كل شيء بالنسبة لهما .. وسمعت فجأة صوت صديقتي يناديني من منعطف الطريق ، فعادت الى رباطة جاشي وانتزعت يدي وعدوت هاربة كي الحق بها ..

وركبنا العربة ، وحينئذ نظرت اليه لاول مرة .. فخلع قبعته وقال لي وهو يبتسم شيئا لا أذكره .. وبدا واضحا انه يشعر بمقدار ما كان يسببه لي من عذاب الم في هذه اللحظة . وبدت

لى الحياة بائسة لغاية ، والمستقبل مظلما للغاية ، والماضى رهيبة للغاية ! .. واخذت صديقتى تحدثنى ، ولكننى لم افهم كلمة واحدة مما قالت ، وخيل الى أنها تتحدث معى بدافع من العطف فحسب .. ولكنها تخفى الاحتقار الذى تكنه لى فى قرارة نفسها . وكنت استشف هذا الاحتقار وهذا العطف المهين فى كل كلمة من كلماتها ، وكل نظرة من نظراتها ..

وكانت قبلته لا تزال تحرق وجنتى .. ولم استطع ان اتحمل عذاب التفكير فى زوجى وولدى . وفى غرفتى ، مكثت بمفردى وانا احاول ان اتأمل موقفى .. وبدت لى فكرة بقائى وحدى امرا يثير الفزع . ولم اتناول الشاى الذى قدم الى ، واتخذت بسرعة مذهلة قرارا بالسفر فى نفس الليلة بالقطار الى مدينة هايدلبرج كى الحق بزوجى ، دون أن أدرى لماذا .. !

ولما جلست مع خادمتى الخاصة فى مقصورة القطار الخالية ، اخذت استنشق الهواء المنعش من النافذة المفتوحة ، فبدأت اثوب الى نفسى وامثل ماضى ومستقبلى على نحو اكثر وضوحا . وفجأة بدت لى حياتى الزوجية ـ منذ يوم رحيلى الى بطرسبرج ـ بصورة ملأت ضميرى بالوخز والندم !

***

وتذكرت لاول مرة مشروعاتى وبداية حياتنا فى الريف ، وكذلك وجهت لنفسى هذه العبارة للمرة الاولى : « كم كانت مسرات سيرج عظيمة فى ذلك الحين ! » . واحسست بأنى مخطئة ومدينة فى حق زوجى . وقلت اسأل نفسى : « ولكن لماذا لا يمنعنى هو ؟ ولماذا يخفى مشاعره امامى ؟ ولم يتجنب اى محاولة لتصفية الموقف ؟ ثم ، لماذا يهيننى ؟ ؟ »

نعم .. لماذا لم يكن سيرج يستخدم سلطان حبه معى ؟ أم تراه لم يعد يحبنى ؟ .. وسواء كان سيرج مخطئا ام لا ، فان قبلة هذا الشخص الغريب لاتزال مطبوعة على خدى ، وكنت لا ازال اشعر

بها . وكلما ازداد القطار اقترابا من هايدلبرج ، اتضحت صورة روجي أمام عيني ، وازددت رهبة من لقائه . وفكرت في ان اقول له كل شيء .. نعم كل شيء ، وان اغرق وجهي بدموع الندم ، ولابد ان يغفر لي سيرج .. غير اني لم اكن أعرف ماهو « كل شيء » هذا الذي ساخبره به .. ولم اكن واثقة كذلك انه سوف يغفر لي ..

وحينما دخلت اخيرا الى غرفة روجي ، ووقع بصري على وجهه الهادىء الذي لم تفلح الدهشة في ان تزيل عنه هدوءه ، شعرت بانني في حالة لست اقوى معها على أن أقول شيئا أو اعترف له بشيء ، أو اطلب منه الصفح . وكان يجثم على صدري احساس عميق بالندم والغضب

قال سيرج :

ـ ما الذي دفعك الى الحضور ؟ لقد كنت انوى ان الحق بك غدا ! ..

واخذ يتفحصني لحظة عن قرب ، وقد بدا مذعورا بعض الشيء ، ثم اضـــاف قائلا :

ـ ماذا حدث لك ؟ تكلمي ..!

فقلت وانا اغالب دموعي :

ـ لا شيء .. لقد جئت اليك .. لنرحل غدا الى بيتنـــا في روسيا

فظل سيرج مدة طويلة ينظر الى باممان .. واخيرا قال :

ـ هيا .. قصي على ماحدث لك ..

واحمر وجهي على الرغم مني ، وخفضت عيني .. وخيل الى ان شعورا بالغضب والاهانة يلمع في نظرته . وكنت اخشى الفكرة التي يمكن ان تستحوذ على رأسه ، فاحسست بقدرة على كتمان مشاعري لم أكن اعتقد أبدا انها في وسعي .. وأسرعت أقول له :

ـ لم يحدث لي شيء .. وكل ماهنالك ان تملكني الحزن والضيق

لقد كنت بمفردى ، فامعنت التفكير فيك وفى حياتنا .. كم اخطأت فى حقك منذ وقت طويل ! .. ولكنك الان تستطيع ان تأخذنى معك اينما تشاء !

ورحت اكرر قائلة :

ــ نعم ... لقد اخطأت فى حقك منذ وقت طويل ..

وانهمرت الدموع من عينى من جديد ، فصحت قائلة :

ــ لنعد الى الريف ، ولنمكث هناك الى الابد ..

فقال فى برود :

ــ وفرى على نفسك مثوبة هذه المواقف العاطفية ياصديقتى.. ومن الخير أن نذهب الى الريف لان المال يعوزنا بعض الشىء . ولكن لا نحلم بالبقاء فى الريف الى الابد ، اذ اننى أعرف أنك لا تستطيعين أن تمكثى فيه فترة طويلة !

ونهض لينادى الخادم ، وهو يختتم حديثه قائلا :

ــ هيا اشربى قدحا من الشاى ..

وكنت اتخيل ما يفكر فيه بشأنى .. وشعرت بالاهانة من نظراته التى كانت تنم عن الشك والخجل . كلا .. انه لايريد أن يفهمنى .. بل ولا يستطيع ان يفهمنى !

وتركته بعد ان اخبرته باننى ذاهبة لرؤية طفلى ، فقد كنت اتوق لان اكون بمفردى حتى استطيع ان ابكى .. ابكى .. ابكى..



الفصل التاسع

صراع من أجل الحب

دبت الحياة من جديد في بيت نيكولسكي ، بعد أن ظل باردا خاليا فترة طويلة .. ولكن لم يعد يعيش فيه كل من كانوا به من قبل ، اذ ماتت حماتي وأصبحت أنا وسيرج منذ ذلك الحين وجها لوجه ..

والآن ، لم تعد الوحدة فقط هي كل ماكان يلزمنا ، بل انها أصبحت مصدر حرج لنا كذلك ..

وانقضى الشتاء بالنسبة الى على نحو سيء ، خاصة وانني كنت مريضة ، ولم تتحسن صحتي الا بعد أن وضعت ابني الثاني . واستمرت علاقتي بزوجي علاقة صداقة باردة ، مثلما كانت أيام حياتنا في مدينة بطرسبرج ، ولكن كل شيء في قصرنا الريفي : الجدران ، وقطع الاثاث ، والارضيات ، كان يذكرني بسيرج الذي فقدته !

كنا وكأن بيننا هوة سحيقة لا سبيل الى عبورها .. وكان يبدو كمن يريد أن يعاقبني عن خطيئة ارتكبتها .. وكنت أتمنى أن تتاح لي فرصة كي استسمحه واطلب منه الصفح والمغفرة ، ولكن كيف تطلب المرء الصفح دون أن يعرف الخطأ الذي ارتكبه ؟ انه كان يعاقبني عن طريق عدم الاهتمام بأمري ، ثم يعد يعطيني نفسه ، ولم يعد يفتح لي قلبه وروحه مثلما كان يفعل في الماضي . وكان لا يخبر احدا بما يدور في قلبه .. وكأنما صار انسانا بلا قلب !

واحيانا كان يجول بخاطري أنه يتظاهر بذلك كي يعذبني .. أما شعوره القديم نحوي فلا يزال كما هو .. وكان يحدث أن اجتهد في اثارته كي يكشف لي عن هذا الشعور القديم ، ولكنه

كان يتهرب دائما كلما حاولت التفاهم معه بصراحة !

***

وخيل الى انه يشك فى انى اخفى شيئا عنه ، وانه يخشى ان يظهر لى مشاعره .. وكان هذا امرا يبعث على السخرية منه . وكانت نظراته وسيماء وجهه تفصحان عن رغبته فى ان يقول : « انى اعرف كل شيء ، وكل الذى تريدين قوله .. اننى اعرف جيدا انك تتحدثين بطريقة وتتصرفين بطريقة أخرى » وكنت اشعر بالاهانة فى البداية بسبب خوفه هذا من ان نكون صريحا .. ولم اعد استطيع بدورى أن اقول انى احبه ، أو أطلب منه ان يشاركنى الصلاة ، أو اناديه ليستمع الى الموسيقى التى اعزفها . وكان يشعرنى بأن قواعد معينة للسلوك تسود علاقتنا طبقا لاتفاق عرفى بيننا !

كان كل منا يعيش فى ناحية .. سيرج غارق فى أعماله ومشغولياته التى لم أعد أشعر بالحاجة أو الرغبة فى مشاركته فيها ، وانا فى فراغى الذى لم يعد يحزننى أو يجرح مشاعرى كما كان يحدث فى الماضى . أما الطفلان ، فكانا لا يزالان صغيرين ، ولم تستطع عاطفتنا المشتركة نحوهما أن تستعيد الروابط التى كانت تربط بين قلبينا ..

واثناء ذلك حل الربيع فجأة .. وجاءت ماشا وسونيا لتمضية فصل الصيف فى الريف ، ولما كنا نقوم ببعض الاصلاحات فى بيت نيكولسكى ، فقد ذهبنا للاقامة فى بيت بوكروفسكى ، الذى كان على الدوام منزلنا القديم ، بشرفته الفسيحة وغرفة مائدته التى لاتغلق ، والبيانو الموضوع فى الصالة المضيئة ، وغرفتى القديمة ذات الستائر البيضاء ، وأحلامى وانا فتاة شابة .. تلك الاحلام التى يبدو اننى قد نسيتها ..

وكان بالغرفة سريران ، ينام فى احدهما نيكولاى الصغير الذى كنا نسميه « كوكوشا » تدليلا ، وفى الآخر ولدى ايفان الصغير الذى كنا ندلله « بفانيكا » . وكنت اذهب الى هذه الغرفة لابارك

كوكوشا دا الوجنتين الكبيرتين ، وتأمل ماريكا الندين الذى تطل ساقاه من اللفة . وكنت بعد أن أقبلهما أظل واقفة مدة طويلة وسط هذه الغرفة الهادئة .. وفجأة كانت كل ذكريات شبابي المنسية تطل على من أركانها الاربعة ومن خلف ستائرها ، وتغنى لي أغنيات الطفولة القديمة .. !

ماذا أصبحت هذه الذكريات ؟ وماذا أصبحت تلك الاغنيات الحميمة ؟ لقد حدث ماكنت لا أجرؤ حتى على تخيله ، وأصبحت أحلامي حقائق معقدة غامضة ، وحياتى صعبة ثقيلة الوطأة لاطعم لها ولا لذة فيها .. ومع ذلك ، بقيت جميع الاشياء من حولي كما كانت في الماضي تماما .. أليست هذه نفس الحديقة التى نرى من خلال النافذة ، ونفس الشرفات والممرات والمقاعد ؟ أليس هذا نفس تغريد البلبل الذى ينبعث من فوق الربوة عند مياه البركة ونفس الازهار التى لازالت مزهرة كما كانت في الايام السابقة ؟ ومع ذلك ، كان كل شيء قد تغير في نفسي تغيرا بشعا !

وكنت وماشا لا نزال نتحدث في هدوء ، كما كنا نفعل من قبل ونحن جالسان في غرفة الجلوس . وحينما كنت أتحدث عن سيرج كانت ماشا تقطب حاجبيها ، ويصفر لونها ، ولم تعد عيناها تلمعان بالأمل والسرور ، وانما تعبران عن حزن عميق ، ومؤاخذة لى وعطف علي . وكنا لانحلم ونحن نتحدث عنه كما كنا نفعل في الماضي وانما كنا نحكم الان عليه ، ولم نعد نعجب بسعادتنا أو نرغب في أن نتحدث عنها ونفيضها على العالم بأسره .. بل كنا نتهامس كالمتآمرات ، وكانت كل منا تسأل الاخرى عشرات من المرات : لماذا تغير كل شيء ؟ لماذا أصبح كل شيء حزينا هكذا ؟

وظل سيرج كما هو .. لم يطرأ عليه شيء الا أن ازداد عمق الثنية التى تقسم جبينه ، وكذلك عدد الشعرات البيضاء على جانبي رأسه ، وكان هناك غيم يغطى دائما نظرته المشبهة العميقة . ومن ناحيتي كنت لا أزال كما أنا .. فقط لم يعد يوجد في نفسي

حب أو رغبة ، كما لم أعد أشعر بالحاجة الى ارضاء نفسي . وبدا لى حماسي الدينى السالف ، وحبى القديم ، وحباني العائلية السابقة .. كل هذه وغيرها بدت لى اليوم أمورا بعيدة للغاية . ولم أكن افهم ماكان يبدو لى حينذاك مشرقا وجميلا ، ولا كيف يجد الانسان السعادة فى العيش من أجل الاخرين .. ولماذا أعيش من أجل الآخرين بينما لا أريد العيش من أجل نفسى ؟

وكنت قد اهملت الموسيقى تماما فى الوقت الذى ذهبت فيه الى بطرسبرج .. ولكن منظر البيانو القديم اعاد الى الميل الى الموسيقى ..

***

ومرضت ذات يوم ، فمكثت وحدى فى البيت ، وكانت سونيا وماشا قد ذهبتا الى بيت نيكولسكى لرؤية الاصلاحات الجديدة . فجلست أمام البيانو لاشغل نفسي بالعزف فى انتظار عودتهما ..

وبدات فى العزف ، ولم ألبث أن استغرقت فيه .. ولم يكن هناك احد يسمع أو يرى .. وكانت النوافذ التى تطل على الحديقة مفتوحة ، والانغام الحزينة العميقة تدوى فى أرجاء الغرفة . ولما فرغت من عزف الجزء الاول من المقطوعة ، نظرت بغير وعى منى ــ وبحكم العادة ــ الى الركن الذى كان سيرج يجلس فيه ليصغى الى عزفى . ولكنه لم يكن هناك ، وكان المكان مشغولا بمقعد لم يغير وضعه منذ زمن طويل . ولمحت على حافة النافذة شجيرات ورد ظهرت بوضوح فى أشعة الشمس الغاربة ، وكانت الرطوبة تتسلل من خلال النوافذ المفتوحة ..

واتكأت على آلة البيانو ، وغطيت وجهى بيدى ، واستغرقت فى الاحلام . ويبدو اننى قد بقيت هكذا مدة طويلة .. اتذكر فى الم ذلك الماضى الذى ولى بغير امل فى العودة ، والحاضر الذى يبعث فى نفسى الخجل . وأخيرا رفعت رأسى فى فزع ، وأخذت اعزف نفس المقطوعة من جديد حتى لا استغرق مرة أخرى فى التفكير . ومع

ذلك ، كنت أحدث نفسي قائلة : « يا الهي ! .. اغفر لي ان كنت اذنبت ، وأعد الى نفسي كل ماكان يحمل روحي ، وعلمني مايجب علي ان اعمله ، وكيف يجب ان اعيش »

وسمعت صوت عجلات عربة تسير فوق الخشب امام سلم الشرفة ، ثم وقع اقدام مألوفة تصعد الدرج في هدوء ، ولم تلبث أن توقفت . ولم يوقظ صوت هذه الاقدام التي اعرفها جيدا نفس المشاعر التي كان يوقظها في نفسي فيما مضى .. وحينما انتهيت من العزف ، بدأت الاقدام سيرها من جـديد ، ثم شـــعرت بيد توضع فوق كتفي ..

قال سيرج :

ـ يا للفكرة الطيبة التي جاءت بك الى هنا لتعزفي هذه المقطوعة!

واضاف يقول حينما لم يسمع اجابة :

ـ الا تتناولين الشاي ؟

وهززت رأسي علامة النفي ، دون ان التفت الى الخلف حتى لا يلاحظ امارات الاضطراب التي كانت بادية على وجهي ..

واستطرد سيرج يقول :

ـ انهما على وشك ان تحضرا .. لقد جن جنون الحصـــان فاضطرتا ان تعودا سيرا على الاقدام ..

فقلت :

ـ اننا سننتظرهما ..

وانتقلت الى الشرفة وانا آمل ان يلحق بي هناك .. ولكنه استفسر عن الطفلين ثم ذهب لرؤيتهما .. ولكن تردد صوته الطيب الحلو ازالت من نفسي فكرة ان كل شيء قد ضـــاع بغير رجعة وقلت لنفسي : « ماذا يمكن ان اشتهي اكثر من ذلك ؟.. انه طيب ووسيم ، وزوج مثالي ووالد ممتاز .. ولســـت ادري انا نفسي ما الذي ينقصني »

وجلست في الشرفة على نفس المقعد الذي جلست فيـــه يوم

تفاهمنا المشهود على الزواج . وكان قرص الشمس قد أوشك أن يختفي وراء الافق ، والظلام قد بدأ يسود المكان .. وكانت الرياح قد خفت حدتها والازهار تنفث في الجو رائحة ذكية نفاذة ..

وحاولت عبثا أن أهدىء نفسي .. واخيرا نزل سيرج وقال وهو يجلس الى جواري :

ــ يخيل الى أن الدنيا ستمطر ، وأن ماشا وسونيا ستغرقهما مياه المطر ..

فصمت :

ــ نعم ..

ثم ساد بيننا صمت طويل ..

وعلى الرغم من سكون الرياح ، لم تكف الغيوم عن الاقتراب من الارض بسرعة .. وفجأة سقطت قطرة مطر كبيرة على أرض الشرفة ، وتلتها قطرة أخرى فوق حصى ممر الحديقة .. ولم يلبث المطر أن انهمر كالسيل ، وهو يحدث صوتا عميقا ثقيلا .. وكانت أصوات البلابل والضفادع قد تلاشت ، فلم يعد يسمع غير هدير المطر ..

وكنا نستطيع أن نميز في وضوح قطراته الكبيرة التي تتساقط في الهواء ، وكان هناك عصفور قد اختفى تحت غصن جفت أوراقه في مكان ما بالقرب من الشرفة ، وكان نغرد نغمتين لا تتغيران . ثم نهض سيرج من مكانه ، وبدا عليه أنه يريد أن يرحل فقلت أسأله وأنا أحتجزه الى جواري :

ــ الى أين أنت ذاهب ؟ .. ان الجو هنا جميل للغاية !

فقال :

ــ يجب أن أرسل مظلة وحذاءين برقبة الى سونيا وماشا

فقلت :

ــ ليس هذا ضروريا لان المطر سينقطع في الحال ..

ووافقني على ذلك .. وبقينا معا بالقرب من سور الشرفة الرطب ، وكنت متكئة بيدي على السور وأمد رأسي خارج الشرفة ،

مثل رذاذ المطر المنعش شعري ورقبتي

واخيرا ، كف المطر عن السقوط .. وعادت البلابل الى غنائها من جديد وهي مختبئة خلف كل الاوراق التي تلمع تحت ضوء القمر . وانحنى سيرج على سور الشرفة ، ثم قال وهو يتخلل شعري بأصابعه :

ـ ما اجمل الحياة ..!

واثرت هذه المداعبة البسيطة في نفسي تأثيرا يشبه العتاب ، حتى شعرت برغبة في البكاء .. بينما استمر سيرج في حديثه قائلا :

ـ ماذا يريد الرجل اكثر من ذلك ؟ .. انني سعيد في هذه اللحظة ولا شيء ينقصني ..

وقمت أفكر في نفسي : « انك لم تقل لي ذلك حينما كان مثل هذا الكلام يسبب لي السعادة .. ومهما كانت سعادتك كبيرة كنت تقول لي حينئذ انك تريد المزيد . وها انذا الان تبدو هادئا ومسرورا ، بينما نفسي مفعمة بندم قد لا يمكن ازالته ، وقد تريد أن تتهمني ! »

ولكنني اجبته قائلة :

ـ ان الحياة طيبة بالنسبة الى كذلك .. ولكنني حزينة لانها طيبة بحوى .. انني أحس بأن شيئا ما ينقصني ، وارغب دائما في شيء آخر . وعلى الرغم من ذلك ، فكل شيء هنا طيب وهادىء للغاية ! فهل يمكن الا يمترج في نفسك أي حزن بهذه المتع التي منحتها لك الطبيعة ؟ .. كأن تندم مثلا على شيء ماق ماضيك

ورفع سيرج يده التي كان يضعها على رأسي ، ولاذ لحظة بالصمت .. ولم يلبث ان قال وكأنه يستجمع ذكرياته :

ـ نعم .. لقد حدث لي ذلك أيضا فيما مضى وخاصة في أيام الربيع . وكنت اقضي ليالي بأكملها احلم بالرغبات واعدد الامال .. ويا لجمال تلك الليالي ! .. حينئذ كان كل شيء أمامي ، والآن

اصبح كل شيء خلفي ، ولكنني الان مسرور بالواقع ..!
وقطع سيرج كلامه ، ثم أردف يقول بعد لحظة :
ـ والواقع الذي اعيش فيه هو الكمال بالنسبة لي ..
نطق سيرج بهذه العبارة الاخيرة في ثقة وعدم اكتراث بلا نعني بالالم ، وكنت مقتنعة بانه صادق فيما يقول .. فقلت اسأله :
ـ اذن فأنت لم تعد ترغب في اي شيء ؟
فاجابني قائلا وقد ادرك حقيقة شعوري :
ـ ليس هناك مستحيل !
ثم اضاف يقول وهو يضع يده من جديد على راسي :
ـ انظري كيف بلت راسك .. انك تغارين من اوراق الشجر والعشب الذي بلله المطر ، وتريدين ان تكوني العشب واوراق الشجر والمطر في آن واحد .. اما انا فاتمتع برؤية هذه الاشياء فقط ..
فقلت له وانا أحس بثقل تزداد وطأته على قلبي :
ـ ألا تندم على شيء في الماضي ؟
وأخلد الى الصمت مرة أخرى واخذ يحلم ، وخيل الى انه يريد ان يتحدث بصراحة ، ولكنه قال أخيراً في اقتضاب :
ـ كلا ..
فصحت اقول وانا اثبت عيني في وجهه :
ـ الا تندم على الماضي ؟
فقال :
ـ كلا ! .. انني لا اباركه ، ولكنني لست نادما عليه ..!
قلت :
ـ الا تتمنى اذن ان يعود الماضي ؟
فقال وهو يشيح بوجهه ناحية الحديقة :

ـ انى لا ارغب فى ذلك مثلما لا ارغب فى ان ينبت لى جناحان .. ان هذا ليس ممكنا ..!

ـ الا تريد أن تعيد بناء الماضى ؟ او توجه اللوم الى او الى نفسك؟

ـ كلا .. لقد سار كلّ شيء على خير ما يرام

فقمت وان امسك بيده كي أرغمه على الالتفات نحوى :

ـ انصت الي !.. يجب ان تنصت الي .. لماذا لم تصارحنى بما كنت تريده منى حتى استطيع ان اعيش وفق هواك ؟ ولماذا منحتنى حرية كنت اسيء استعمالها ؟ .. لماذا كففت عن تعليمى وتوجيهى

واستطردت اقول بصـــوت كان يزداد قوة ، ويعبر عن الغضب البارد اكثر مما يعبر عن الحب الماضى :

ـ لو انك اردت ذلك .. اعنى لو انك وجهتنى توجيها آخر لمـا حدث أى شيء على الاطلاق ..

فقال وهو يلتفت نحوى فى دهشة :

ـ وما الذى حدث ؟ ان شيئا لم يحدث ابدا ..!

ثم عاد يقول وهو يبتسم :

ـ ان كل شيء على ما يرام .. على ما يرام تماما ..

وعكرت اقـــول فى نفسى والدموع تكاد تطفـــر من عينى : « امن الممكن انه لم يفهمنى ؟ او انه لم يشأ ان يفهمنى ؟ »

ولكننى قلت له فجأة :

ـ بما انى لم ارتكب اى ذنب فى حقك ، فلا يمكنك ان تعاقـــبى بعدم اكتراثك وحتى باحتقارك .. أما ما حدث ، فهو انى اراك تنتزع منى كل غال وعزيز دون اى خطأ من جانبى ..

فصاح يقول وكأنه لم يفهم ما قلت :

ـ ماذا تقولين يا صديقتى ؟

فقلت :

ـ دعني انتهي اولا مما اريد ان اقول .. لقد نزعت مني كل ثقتك وحبك ، وحتى احترامك ، لمجرد انني كففت عن الاعتقاد بأنك لم تكن تحبني بعد ما حدث بيننا .. آه ! يجب على الاقل ان اصارحك ولو مرة واحدة بما يعذبني منذ مدة طويلة .. هل كنت مدينة لانني لم اكن اعرف الحياة ولانك تركتني اكتشفها بمفردي ؟ وهل انا الان مدينة في الوقت الذي تبتعد عني دائما متظاهرا بانك لا تفهمني او تفهم ما اريد ، بينما قد فهمت اخيرا ما يلزم المرء في هذه الحياة ... والان ، وقد انقضى على نحو عام وانا اكافح كي اعيد اليك ، هل تريد ان تسير الامور بحيث لا توجه اللوم الى نفسك ابدا بخصوص اي شيء ؟ هل تريد ان تبقى بي من جديد في هذا البرج من الحياة الذي سيجر الشقاء على نفسي ونفسك !

فقال يسألني في فزع ودهشة :

ـ وما الذي يدفعك الى الظن بأنني اريد ذلك ؟

قلت :

ـ الم تقل لي بالامس انني لا اجد الراحة هنا ، وان علينا ان نذهب من جديد الى نظرسبرج لتمضية فصل الشتاء ، وهي مدينة اشعر الان بالبشع كلما فكرت فيها ؟

واضفت اقول :

ـ لقد تجنبت الحديث معي بصراحة ، ولم تقل لي ايه كلمة صريحة جميلة مع انه كان يجدر بك أن تمد لي يد المساعدة .. وبعد ذلك ، حينما اسقط ، سوف توجه الي اللوم على هذا السقوط ! ...

فقال في برود وقسوة :

ـ كفى .. كفى .. ان الذي تقولينه غاية في السوء ، وهو يكشف عن استعداد سيء نحوي ..

فقاطعته قائلة :

ـ يبدو انك تريد ان تقول اني لا احبك ! هيا قل ذلك ! ... قله اذن !..

وبللت الدموع عيني ، فجلست على مقعد وغطيت وجهي بمنديلي محاولة ان امنع الدموع الغزيرة التي كانت على وشك ان تنهمر على وجنتي ، وفكرت قائلة في نفسي : « هكذا يفهمني اذن ؟.. لقد ضاع كل شيء ، وانتهى حبنا السابق ! »

ولم يقترب مني مواسيا ، فقد كان مجروح الشعور مما قلت له ، ولكنه لم يلبث ان قال بصوت هادىء جاف :

ـ لست أعرف كيف توجهين الي اللوم الا اذا كنت تعتقدين اني لم اعد احبك كما كنت أحبك في الماضي ..

فتمتمت اقول من تحت منديلي :

ـ كما كنت تحبني في الماضي ؟!

وبللت دموع المرارة منديلي ، ولكنني قلت أخيرا :

ـ انما في هذا .. كلانا والزمن ، تتقاسم الجرم بالتساوي .. ان كل وقت يناسبه وجه للحب ..

فقال بعد لحظة من الصمت :

ـ اذا كنت تحبين أن احدثك بصراحة ، فسأخبرك بالحقيقة كلها . لقد قضيت ليالي باكملها لا يغمض لي جفن في السنة التي عرفتك فيها .. كنت أفكر فيك واني حبي نفسي .. ونما ذلك الحب وترعرع في قلبي . وفي مدينة بطرسبرج ، قضيت ليالي بشعة باكملها وانا أحاول ان احطم هذا الحب الذي كان مصدر عذابي . ولم أستطع تحطيمه ، ولكنني تمكنت على الاقل من تحطيم ما كان يعذبني فيه . واخيرا هدأت ، واستمر حبي لك .. ولكنه حب آخر ..

فقلت :

ـ هل تسمي هذا العذاب الاليم حبا ؟ لماذا اذنت لي بأن اعيش

في المجتمع الراقي ما دمت تعتقد انه مجتمع فاسد ؟

ــ ولكن المذنب ليس المجتمع الراقي يا صديقتي ..

ــ ولماذا اذن لم تستعمل سلطتك على ؟ لماذا لم تمنعني رغم ابي ؟ لماذا لم تقتلني ؟ ان ذلك خير من ان افقد كل ما يكون سعادتي .. لقد كان هذا افضل بالنسبة لي ، ولم يكن هناك داع للخجل ..

وبكيت مرة اخرى وانا اغطي وجهي بمنديلي . وفي هذه اللحظة دخلت ماشا وسونيا الى الشرفة في مرح وقد بلل المطر كل ثيابهما ، ولكنهما كانتا مرحتين للغاية .. وكفتا عن الضحك حين وقع بصرهما علينا ، وغادرتا الشرفة على الفور ..

***

ومكثنا صامتين بعد خروجهما فترة طويلة ، ولما استنزفت دموعي شعرت بالاسى يخف عن قلبي . ونظرت اليه فوجدته جالسا وقد اتكأ برأسه على يديه ، وبدا كما لو كان يريد ان يجيب على نظرتي بشيء ، ولكنه اكتفى بأن تنهد في الم ، واتكأ برأسه من جديد على يديه ..

واقتربت منه وابعدت يديه .. وحينئذ التفت الى وقال وكأنه يبحث عن الكلمات التي يتفوه بها :

ــ نعم يبدو انكن ــ معشر السيدات ــ لابد ان ترفعن كأس الاستهتار حتى شفاهكن قبل ان تستطعن تذوق الحياة ، وانتن في ذلك لا تصدقن ابدا تجربة الاخرين . في ذلك الوقت ، لم تكوني قد توغلت بعد في عالم الميوعة والاغراء واظهار الرقة ، فتركتك تغمسين نفسك لحظة في هذا العالم ، ولم يكن من حقي ان امنعك من ذلك لمجرد ان ساعات الهوى ونزوات شبابي انقضت ــ بالنسبة الى ــ منذ زمن طويل ..

قلت :

ـ اذا كنت تحبنى ، فلماذا اذن تركتنى اعيش وسط هذا الجو المشبع بالميوعة ؟

فقال :

ـ لانه لم يكن من الحكمـة أن تصـدقيني ، وكان لابد من أن تحتسري هذا الجو بنفسك ..

قلت :

ـ لقد كنت تفكر بعمق كبير ، وهذا معناه انك لم تكن تحبني .. وساد الصمت بيننا مرة اخرى ، واخيرا قال وهو يقف فجأة .

ـ لقد قلت منذ لحظة كلاما قاسيا . ولكنه الحقيقـه .. نعم ، انه الحقيقة ..

وبعد ان تمشي لحظة في ارجاء الشرفة ، وقف امامي وأضـاف قائلا :

ـ نعم .. لقد كنت مذنبا .. لقد كان يجب الا آذن لنفسي بان احبك ، أو ان احبك ببساطة اكثر ..!

فقلت في تواضع وخجل :

ـ لننس كل شيء يا سيرج ..

فقال بصوت خفت حدة جفائه بعض الشيء :

ـ كلا .. ان ما ينتهي لا يمكن ان يعود ، والمرء لا يرجع ابدا الى الوراء ..

فقلت وانا اضع يدي على كتفه :

ـ ولكن .. لقد عاد كل شيء يا سيرج ..

فامسك بيدي وضغط عليها قليلا ، ثم ابعدها عن كتفه وهـو يقول :

ـ كلا .. انى لم اذكر الحقيقـة حينمـا ادعيت انى لا اندم من ماضي . والواقع انى اندم على حبك الماضي وابكى عليه . انى ابكى على هذا الحب الذى لم يعد يستطيع ان يعيش اليوم بصورة

اكثر قوة . من المسئول عن كل ذلك ! لست ادرى .. قد يكون الحب لا يزال موجودا ، ولكنه لم يعد كما كان . ان مكانه لا يزال يملأ قلبى .. ولكنه مهشم وبلا طعم ، ولم تتلاش الذكرى والعرفان بالجميل . ولكن ..

مقاطعته قائلة :

ــ لا تتحدث هكذا .. فلنبعث هذا الحب كاملا من جديد مثلما كان فى الماضى ...

ونظرت فى عينيه مباشرة ، ثم اضفت قائلة :

ــ هل يمكن ذلك ؟..

كانت عيناه صافيتين وهادئتين ، وبدات احس بان هدف من الحديث مع سيرج لم يعد بعيد التحقيق . وكان يبتسم ابتسامة هادئة جميلة تشبه ابتسامة الشيوخ .. قال :

ــ انك لا تزالين صغيرة السن ، وانا رجل عجوز .. ولم اعد املك ما قد تريدين البحث عنه ..

واضاف يقول وهو لا يزال يبتسم :

ــ لماذا يخدع المرء نفسه ؟

كنت صامتة الى جواره ، وكنت أشعر بالهدوء يعود الى نفسى رويدا رويدا ..

قال سيرج :

ــ ينبغى ألا نحاول ان نزور الحياة ، كما لا يجب ان نكذب على انفسنا . ومن فضل الله علينا أن لم يعد هناك مايعكر علينا حياتنا او يثير الغضب فى نفوسنا .. لقد سبق لنا أن استمتعنا بكل ما كنا نريد ، وقد ظفرنا بنصيب وافر من السعادة

***

واشار سيرج بيده الى المربية التى كانت تقترب منا ، وكانت

واقفة الى جوار باب الشرفة حاملة ولدنا فاتيا بين ذراعيها ، ثم احتتم حديثه قائلا وهو ينحنى على رأسى ويقبلها :

ـ لن يجب أن نجتهد فى شق الطريق ؟.. لطفلينا .. هـذا ما يجب ان نفعل يا صديقتى العزيزة ..

لم يكن الذى يقبلنى رجلا محبا وانمـا كان صـديقا قديما .. وكانت رطوبة الليل المشبعة بعبير الزهور تهب من نهاية الحديقة وتزداد جمالا وقوة ، وكانت هناك اصوات بعيدة منتشرة فى الهواء تعقبها فترات هدوء عميق ، والنجوم تتكاثر فى السماء ..

ونظرت الى سيرج ، فشعرت بهم ثقيل تخف وطاته عن كاهلى، وكنت اشبه ما اكون بانسان يشعر بالراحة بعـد أن انتزعوا منه عضوا مريضا كان يذيقه العذاب . وادركت على الفور فى وضوح أن عاطفتى التى كانت تسيطر على خلال تلك الفترة من حياتى قد احتفت بلا عودة .. بل لقد تلاشت أيضا هذه الفترة نفسـها من حياتى ، واصبحت عودتها شيئا مستحيلا ومؤلما وكريها على نفسى

وقال سيرج فى رفق :

ـ اظن انه قد حان موعد تناول الشاى ..

وذهبنا معا الى غرفة الجلوس .. وصادفت المربية مع ماشـا امام باب الغرفة ، فأخذت طفلى بين ذراعى وغطيت قدميه الصغيرتين العاريتين وضممته شـده الى صدرى وقبلته ، وحينئـذ حرك ذراعيه وهو نائم تقريبا ، ثم فتح عينين بدت فيهما الحيرة كما يفعل المرء حين يحاول ان يتذكر شيئا ، ولم يلبث ان لمع فيهما بريق من الذكاء وابتسم ابتسامة عريضة

وأحسست بخمول لذيذ يشيع فى اعضـاء جسمى وانا احمل طفلى فى حنان محاولة الا اسبب له الالم ، ورحت أكرر قائلة :

ـ انك ملك لى .. انك ملك ..

واقترب زوجى منى ، وغطى وجه الطفل ، ثم عاد فكشفه من

جديد وهو يقول مداعبا الطفل باصبعه تحت ذقنه :

ــ يا ايفان سيرجييفيتش !

وغطيت وجه الطفل مرة اخرى ، اذ لم اكن اريد ان ينظر اليه شخص آخر سوانا ، ونظرت الى زوجى فالفيت عينيه تضحكان وتنظران الى دائما ، وكانت هذه أول مرة أشعر فيها بالسرور وانا اتاملهما منـــذ زمن بعيد

وفى اليـــوم نفســه ، انتهت قصة غرامى مع زوجى .. وظلت العاطفة القديمة قائمة فى قلبى ومعها تلك الذكريات العزيزة التى لم يعد من الميســـور ان نحياها من جــديد .. لقد نشأ فى قلبى حب جديد لابنائى ووالد ابنائى . وكان هذا فاتحة حياة جــديدة تكتنفها سعادة من لون مختلف ..

وحتى هذه اللحظه ، لم استبعد بعد هذه السعادة ، وانا الآن مقتنعة تماما بان الســـعادة الحقيقية للمرأة تكمن فى بيتها واولادها والمسرات العائلية النقية ..

انتهى

سلسلة روايات الهلال

مجلة قصصية شهرية تصدر عن دار الهلال

بدأت حياتها فى يناير سنة ١٩٤٩ باصدار الروايات الخالدة التى وضعها المرحوم جرجى زيدان عن تاريخ الاسلام ولقيت فى عهده انتشارا كبيرا ...
ثم واصلت جهودها فى خدمة الادب القصصى الرفيع بتقديم منتخبات من روائع القصص العالمى ...

فهل تنقص مجموعتك احدى هذه الروايات ؟ ...

روايات تاريخ الاسلام لجرجى زيدان

١ ــ فتح الاندلس (نفدت)
وصف اسبانيا وفتح العرب لها

٢ ــ صلاح الدين ومكائد الحشاشين (نفدت)
قصة سقوط الدولة الاسماعيلية وحياة مؤسسها

٣ ــ شجرة الدر (نفدت)
قصة سيرة اول ملكة فى الاسلام بمصر

٤ ــ ارمانوسة المصرية (نفدت)
قصة فتح مصر على يد عمرو بن العاص

٥ ــ عذراء قريش (نفدت)
قصة مقتل الخليفة عثمان بن عفان

٦ ــ ١٧ رمضان (نفدت)
قصة مقتل الامام على وفتنة الخوارج

٧ ــ غادة كربلاء (نفدت)
قصة مقتل الامام الحسين وآل البيت

٨ ــ الحجاج بن يوسف (نفدت)
قصة مقتل عبدالله بن الزبير بعد حصار مكة

٩ ــ شارل وعبد الرحمن (نفدت)
قصة فتوحات العرب فى فرنسا

١٠ ــ ابو مسلم الخراسانى (نفدت)
قصة قيام الدولة العباسية فى بغداد

١١ ــ العباسة اخت الرشيد (نفدت)
قصة نكبة البرامكة فى عهد الرشيد

١٢ ــ الامين والمأمون (نفدت)
قصة استقلال الخلافة من الامين لاخيه المأمون

١٣ ــ عروس فرغانة (نفدت)
قصة الدولة العباسية فى عهد المعتصم

١٤ ــ احمد بن طولون (نفدت)
قصة استقلال مصر فى عهد احمد بن طولون

١٥ عبدالرحمن الناصر (نفدت)
قصة العصر الذهبى للعرب فى الاندلس

١٦ ــ فتاة القيروان (نفدت)
قصة فتح الفاطميين لمصر على يد القائد جوهر

١٧ و ١٨ ـ فتاة غسان « جزءان »
(الجزء الاول نفد)
قصة ظهور الاسلام وفتوحاته الاولى
١٩ ـ الانقلاب العثماني
وصف حالة تركيا في عهد عبد الحميد
٢٠ ـ اسير المتمهدي
قصة ثورة عرابي بمصر والمهدي بالسودان

٢١ ـ استبداد المماليك (نفدت)
قصة الحرب بين روسيا وتركيا
٢٢ ـ الملوك الشارد (نفدت)
وصف مصر وسوريا في القرن الماضي
٢٣ ـ جهاد المحبين (نفدت)
قصة انتصار الحب الصادق برغم كل العقبات

.. ومن روائع القصص

٢٤ ـ غرام نابليون في مصر (نفدت)
تأليف روجيه رجيس
٢٥ ـ غرام عطيل
تأليف اميل لودفيج
٢٦ ـ رسول القيصر
تأليف جول فيرن
٢٧ ـ غادة طيبة
تأليف أجاثا كريستي
٢٨ ـ روميو وجولييت
تأليف بول ريبو
٢٩ ـ غادة الكاميليا
تأليف مرسيل موريت
٣٠ ـ انا كارنينا
تأليف ليو تولستوي
٣١ ـ الزنبقة السوداء
تأليف اسكندر دوماس الاب
٣٢ ـ اغلال الحب
تأليف سومرست موم
٣٣ ـ قلوب تحترق
تأليف ستيفان زفايج
٣٤ ـ ملاك الرعب
تأليف ادجار والاس
٣٥ ـ ذات الرداء الابيض (نفدت)
تأليف ويلكي كولنز
٣٦ ـ الكونت دي مونت كريستو
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٣٧ ـ البعث (نفدت)
تأليف ليو تولستوي
٣٩و٤٠ ـ ذو القناع الحديدي (جزءان)
(نفدا)
تأليف اسكندر دوماس الكبير

٤١ ـ ابنة البخيل (نفدت)
تأليف اونوريه دي بلزاك
٤٢ ـ مأساة مايرلنج
تأليف بول ريبو
٤٣ ـ الارض الطيبة
تأليف بيرل بك
٤٤ ـ غراميات راسبوتين
تأليف شارل بتي
٤٥ ـ جريمة في الريف
تأليف اجاثا كريستي
٤٦ ـ ماري انطوانيت
تأليف ستيفان زفايج
٤٧ ـ الفارس الخامس
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٤٨ ـ الادب الخالد
تأليف اونوريه دي بلزاك
٤٩ ـ مغامرات مستر بيكويك
تأليف شارلز ديكنز
٥٠ ـ كاتالينا
تأليف سومرست موم
٥١و٥٢ ـ الفرسان الثلاثة «جزءان»
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٥٣ ـ زهرة الحب
تأليف اونوريه دي بلزاك
٥٤ ـ الشقراء البريئة
تأليف ايرل ستانلي جاردنر
٥٥ ـ شبح وطاقية
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٥٦ ـ القائية اللعوب
تأليف ايفان تورجنيف
٥٧ ـ صراع الحب
تأليف فيدور دستويفسكي

٥٨ ـ في مهب الريح
تأليف لين يوتنج
٥٩ ـ اوليفر تويست
تأليف شارلز ديكنز
٦٠ ـ الثورة الحمراء
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٦١ ـ جريمة في وادى النيل
تأليف اجاثا كريستى
٦٢ ـ قلبان في عاصفة
تأليف روفائيل مساتيني
٦٣ ـ احدب نوتردام
تأليف فيكتور هيجو
٦٥ ـ الشبح الرهيب
تأليف اجاثا كريستى
٦٥ ـ الحب في العذاب
تأليف ابيه بريفو
٦٦ ـ العاشق الفارس
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٦٧ ـ البنفسجة الحسناء
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٦٨ ـ العاشقة العذراء
تأليف ايفان تورجنيف
٦٩ ـ دافيد كوبرفيلد
تأليف شارلز ديكنز
٧٠ ـ عاصفة وقلب
تأليف فيكتور هيجو
٧١ ـ ذات الشعر الذهبي
تأليف سومرست موم
٧٢ ـ الوحش الرهيب
تأليف ادجار والاس
٧٣ ـ العاشق المجنون
تأليف اميل زولا
٧٤ ـ جوهرة القمر
تأليف ويلكى كولنز
٧٥ ـ السجين الهارب
تأليف ادجار والاس
٧٦ ـ غانية باريس
تأليف اميل زولا
٧٧ ـ جنون الحب
تأليف سومرست موم
٧٨ ـ الخيط الدموى
تأليف كونان دويل
٧٩ ـ صراع بين الاجيال
تأليف ايفان تورجنيف

٨٠ ـ الكلب الجهنمي
تأليف كونان دويل
٨١ ـ المرابية العجوز
تأليف فيدور دستويفسكى
٨٢ ـ قلب محطم
تأليف جي دي موباسان
٨٣ ـ الافق الضائع
تأليف جيمس هيلتون
٨٤ ـ مرتفعات ويذرنج
تأليف اميلى برونتى
٨٥ ـ مغامرات شرلوك هولز
تأليف كونان دويل
٨٦ ـ الزوج الخالد
تأليف فيدور دستويفسكى
٨٧ ـ الارض العذراء
تأليف ايفان تورجنيف
٨٨ ـ رجال الله
تأليف بيرل بك
٨٩ ـ مذكرات شرلوك هولز
تأليف كونان دويل
٩٠ ـ قلب المرأة
تأليف سومرست موم
٩١ ـ امرأة في الثلاثين
تأليف اونوريه دى بلزاك
٩٢ ـ الكنز المفقود
تأليف كونان دويل
٩٣ ـ ابن مصر
تأليف جيمس بيبى الصغير
٩٤ ـ اعلان عن جريمة
تأليف اجاثا كريستى
٩٥ ـ الحب العظيم
تأليف ايفان تورجنيف
٩٦ ـ الكاس الاخيرة
تأليف اجاثا كريستى
٩٧ ـ وادى الرعب
تأليف كونان دويل
٩٨ ـ بنت مصر
تأليف مارجرى لورنس
٩٩ ـ ابنة القائد
تأليف اسكندر بوشكين
١٠٠ ـ الحرب والسلام
تأليف ليو تولستوى
١٠١ ـ عنترة بن شداد «الجزء الاول»
تأليف يوسف بن اسماعيل